



رابطة الأدب الإسلامي العالمية

مكتب البلاد العربية

٣٢

الأرض الجريحة

(مجموعة قصصية)

صورية إبراهيم مروشي

المجموعة القصصية الفائزة بالجائزة الثالثة في

مسابقة الأدبيات في رابطة الأدب الإسلامي العالمية

العبيكان
Obékan

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مروشي، صورية إبراهيم

الأرض الجريحة. / صورية إبراهيم مروشي. - الرياض، ١٤٣٠هـ

٢٢٤ ص؛ ١٤ × ١٢ سم

ردمك: ٩٧٨-٩٩٦٠-٥٤-٩٢٦-٢

١- القضية الفلسطينية ٢- فلسطين - تاريخ - الاحتلال

أ- العنوان

ديوي ٩٥٦,٩٠٤ ١٤٣٠ / ٨٣٨٦

رقم الإيداع: ١٤٣٠ / ٨٣٨٦

ردمك: ٩٧٨-٩٩٦٠-٥٤-٩٢٦-٢

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

العبيكان
Obeikan

التوزيع: مكتبة

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ / ٤١٦٠٠١٨ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

الناشر للعبيكان
Obeikan للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

obeikandi.com

المحتويات

٧	 الأرض الجريحة
١٥	 متاع الغرور
٢٢	 العذاب العذب
٢٩	 الوطن الخالد
٣٥	 تجربة في الإدارة
٤١	 دوامة!!
٥٢	 ثمن الخطيئة
٧٣	 الأحلام المؤؤودة
٨٥	 القرية النائمة
٩٥	 أمسية عائليّة
١٠٧	 مات.. لم يمّت!!
١١٥	 عودة قابيل

- ١٢٧ ويورق الأمل
- ١٣٧ المدرسة البرهومية
- ١٤٩ مأساة
- ١٥٩ النزيف
- ١٦٩ السقوط
- ١٨٤ غريب
- ١٩٨ الشهيد
- ٢١١ رحلة البحث عن النصف الآخر



الأرض الجريحة

تململت الأرض في نومها صباح يوم جميل، وفتحت عينيها فاستقبلتها أشعة الشمس الدافئة تداعبها في حنو، وابتسمت الأرض لرفيقته الدائمة، وقالت متأهبة للنهوض:

«صباح الخير يا صديقة العمر، ورفيقة درب الحياة!!»..

فقالَت الشمس، مبتسمة كعادتها، وهي لا تزال تداعب الأرض بأشعتها الذهبية:

«صباح الخير أيتها الأم الرؤوم، كيف حالك هذا الصباح؟»..

«في أحسن حال... إنني سعيد جداً... انظري إلى السماء كيف تظللنا بزرقتها الهادئة، تحمينا من كل نوائب الدهر كما يحمي السقف بيتاً هادئاً مطمئناً من برد الشتاء وحر الصيف... واستمعي إلى زقزقة العصافير، وهي تغادر أعشاشها الصغيرة نحو الأفق الرحب، إن أصواتها الصباحية تزيدني غبطة وسروراً، وتلك الحيوانات المختلفة الأشكال والألوان والأحجام، انظري إليها وهي تزحف وتمشي وتتفزز على ظهري في دعة وأمان بين الغابات والمروج الخضراء تبحث عن طعام لها ولأولادها...»..

صممت الأرض وهي تتأمل تلك المخلوقات تسيح على سطحها أو تحلق في السماء، سعيدة بذلك اليوم الجميل، وارتسمت على وجهها ابتسامة أضاءت الكون كله، فزادته جمالاً على جماله، وارتفعت الشمس في الأفق فخرج الإنسان من بيته قاصداً عمله، فقالت الأرض مشيرة إليه:

«انظري أيتها الشمس الحبيبة، إلى هذا المخلوق الغريب!!!... إنه خليفة الله على كوكبي الأخضر، وهو برغم كونه خليطاً من خير وشر إلا أنه - والحق يقال - عمرني بعمله الدؤوب، وطورني بمخترعاته الذكية، وجعلني بغير الوجه الذي كنت عليه منذ آلاف السنين!!!... إنني أعترف أنه أحق بالخلافة من سائر المخلوقات الأخرى... ولكن...».

«ولكن ماذا؟!...». سألت الشمس حائرة.

«إن للإنسان أعداء كثيرين، وأول عدو له.. نفسه!!».

«ماذا تقصدين؟!».

«إنني أمّ للإنسان والحيوان، ولكل حي يدب على ظهري، مني خرجوا وعليّ درجوا، وإليّ يعودون بعد طول طواف، وما تعدى الحيوان - منذ غابر العصور - على أقرانه أو على بني الإنسان ظمناً.. إنما يسعى لجلب الغذاء ودفع مضرة الأعداء، ولكن الإنسان جشع طماع لا يقنع بما بين يديه، فيبادر إلى الاعتداء على غيره».

فقالت الشمس ضاحكة، وهي تحاول تغيير دفة الحديث:

«لقد كان ذلك في الماضي البعيد يا أمّا... لكن الحمد لله، فمنذ سنوات كثيرة، ونحن نعيش في سلام نستمتع بما أعطانا الله من نعم».

وتنبهت الأرض مرة أخرى إلى الجمال المحيط بها، فقالت معقبة على حديث الشمس الطيبة:

«معك حق، لندع ذكر الآلام ولنستمتع بهذا الجمال وسط هذا الجو البديع، ألا.. ما أروع صنع الله، وما أبدع خلقه!!».

مضى النهار كحلم جميل، واختفت الشمس سعيدة بيومها بعد أن ودعت صديقتها، وأطل القمر بنوره الوضاء يتمسح بالأرض، فهشت للقاءه، وسعدت بمقدمه، وقالت له عاتبة:

«تأخرت في الظهور يا جليس وحدتي، وأنيس خلوتي، فأين كنت؟».

فقال لها يداعبها بنوره ويراقصها بأنغام صوته الشجي الهادئ:

«إنني لا أتأخر في الظهور ولا أغيب أياماً إلا لأظهر أكثر إشراقاً، وأضيف إلى جمال الكون بهدوئه وسكونه جمال ضيائي وسحر نوري رفقة النجوم المتلألئة في السماء... كل هذا من أجل سعادتك أنت أيتها الأم الحبيبة».

«ومن أجل سعادة الإنسان أيضاً، فهو لا يقل عني حباً لك وشغفاً بمقدمك!!».

قضت الأرض ليلتها في عرس بهيج تتاجي القمر، وتراقص النجوم الصغيرة، وتسابق الشهب المتناثرة حتى غلبها النعاس، فنامت هائلة وابتمامة ساحرة تغطي ربوعها الشاسعة.

استيقظت الأرض في اليوم المقبل على أصوات الحيوانات تهرب

مذعورة ووقع أقدامها يضرب أقطاب الأرض متفرقة في كل اتجاه، نظرت إلى السماء فإذا وجه الشمس قد اختفى وراء دخان أسود كثيف جعل الأرض تعتقد أن النهار لم يطلع بعد، ولم تعرف ماذا يحدث، فالحيوانات كانت مشغولة بالهرب من خطر جسيم.

فجأة انفجرت قنابل هنا وهناك، فخرج الإنسان يحذو حذو الحيوان هارباً على غير هدى، وانتشرت الجثث والأشلاء في كل مكان، وأضحى كل شيء ينبئ بالموت والدمار.

بكت الأرض دماً على الأذى الذي لحق بها، والجراح التي ألمت بجسدها، فاختلط دمها بدم الموتى والجرحى، وامترجت آهاتها بأهات اليتامى والثكالى والمفجوعين، ولم يكن بكأؤها أقل حدة وإيلاماً من بكاء النساء والرجال والأطفال.

دوى صوت الأرض يسأل:

«من السبب؟... من الفاعل؟!...»

فإذا منادٍ ينادي مجيباً.

«الإنسان!!...»

لم تشك الأرض لحظة أنه هو، فكتمت أنين نحيبها وانطلقت تحدث نفسها:

«لماذا؟!.. لقد كان الإنسان - كما الحيوان - يعيش في دعة وأمان، هادئ البال مطمئن الفؤاد، والرزق وفير يضمّنه مالك كل شيء، فلم الخلاف وعلام الاختلاف؟!...».

وسمعت الناس يتصايحون:

«إنها الحرب... الثورة... الفتنة الكبرى... كل شيء هالك، ولن يبقى مخلوق على الأرض!!...»..

وفزعت الأرض:

«لماذا الحرب؟... لماذا الثورة؟... ماذا ينقص الإنسان حتى يدمر بيديه كل ما بناه خلال سنوات... لماذا؟»..

وسمعت أحد البشر يقول:

«إننا نقاتل من أجل الحدود وسيادة البلاد...»..

فقالت فاغرة فاهها من الدهشة:

«الحدود؟... الحدود قيود... إن الله خلقني مطية للناس أجمعين، يقيمون على ربوعي حيث شاؤوا، فلماذا يقتسمونني بحدود وهمية، ثم يتقاتلون من أجلها؟!!...»..

وقال آخر:

«إن بلدًا قويًا طمع في خيرات بلد ضعيف، فاحتله بالقوة وها هو الشعب يثور عليه لطرده بالقوة أيضاً»..

فقالت الأرض متألمة:

«بلد قوي وبلد ضعيف؟!!... إن البلدان كالإنسان.. قوته وضعفه، تكمن في صلاح الأعمال وتسخير العلم فيما ينفع ولا يضر، ويصلح ولا

يفسد... بالأخوة والتعاون يزدهر الكون ويزهر، وبمثل هذه الاعتداءات يتحطم ويندثر، ولماذا يعتدي بلد على بلد آخر، أو جار على جاره، والخير وفير يكفي الجميع؟...»

وأرهفت السمع، فإذا شخص ثالث يقول:

«إنها ثورة داخلية والصراع فيها شديد على تاج الملك أو كرسي الرئاسة!!...»

فعجبت الأرض وتساءلت بينها وبين نفسها:

«الملك؟ وهل للكون كله مالك للملك غير الله؟... أليس الملك ظل الله على أرضه يحكم فيها بالعدل من أجل سعادة البشر؟ ألا تختار الأمة ملكها أو رئيسها لحكمته وسداد رأيه وقدرته على لَمّ شمل الشعب على كلمة واحدة من أجل هدف واحد؟... فلم التقاتل ولا يستحق الملك إلا من هو أهلُّ له؟...»

وكلما انتقلت الأرض بعيونها الدامعة على بقاعها المتألّمة سمعت صراخاً حينئذٍ.. وهمساً أحياناً أخرى، وها هي ذي في مكان قصيّ تسمع أناساً يتحدثون، قال أحدهم:

«إننا نقاتل لاختلاف أدياننا ولغاتنا، وحتى لتباين ألواننا... نحارب ليسود ديننا، وتعم لغتنا، وليكون جنسنا سيّداً لغيره من الأجناس الأخرى... كل شيء يدفعنا لكي نقاتل أو نقتل...»

فقالَت الأرض، وقد ذهبت بها الحيرة والعجب كل مذهب:

«الدين؟... الإنسان حرٌّ في اعتناق الدين الذي يرتضيه لنفسه... والدين عند الله الإسلام... اللغة؟... هي وسيلة للتواصل والاتصال وليست للخلاف والانفصال، ومن تعلم لغة قوم أمن شرهم، ولغة القرآن هي أم اللغات...!! اللون والجنس؟... ليس لأبيض على أسود، ولا لعربي على أعجمي فضل إلا بتقوى الله والعمل الصالح...».

وانزوت الأرض تراقب فعل الإنسان على سطحها، وآلمتها جرائم هذا الابن العاق في حق نفسه وبني جنسه وفي حقها أيضاً، إذ كيف يقابل حبها له وحنوها عليه بكل هذه الوحشية وتلك القسوة؟ وأيقنت أن روح قابيل عادت مرة أخرى تزرع الموت والخراب وتسقي التراب بالدم والدموع وتغذي في الإنسان جانبه الشر المليء بالأحقاد والضغائن، غير مبالية بروح هايل الطيبة التي لم يبقَ منها غير أنفاس ضعيفة توشك أن تتوقف إلى الأبد.

مرت أشهر وسنوات ووجه الشمس حزين كئيب لا يظهر يوماً إلا ليختفي أياماً طويلة تحت غيوم من الدخان المتصاعد، والقمر يبدو داعم العين خافت النور وكأنه يحتضر، ولم تعد الأرض تسمع زقزقة العصافير ولا حركة الحيوانات، قضت الحرب على كل شيء جميل، حتى الإنسان يسير في الطرقات ذاهل العقل، شارد الفكر، محطم القوى كأنه بقايا هيكل عظمي يوشك أن يتهاوى بين لحظة وأخرى.

لم تطلق الأرض صبراً وهي ترى العذاب المهيمن يلحق بها وبمن عليها، فتوجهت إلى السماء باكية بين يدي الرحمن.. داعية خالق كل شيء أن يريحها من عذابها، واستغرقت في دعائها طويلاً لا تقتر لها عزيمة، ولا يسكت لها صوت.

ذات يوم عصيب لم تشرق فيه الشمس، دوت صرخة اهتزت لها الجبال، وزلزلت لها الأرض، فإذا بنو البشر يسقطون صرعى من هول ما سمعوه، وما هي إلا دقائق قليلة حتى سكن كل شيء واختفى الإنسان من سطح الأرض فلم يعد له وجود، ثم أبرقت السماء وأرعدت وسقط المطر غزيراً يغسل كل شيء، وظهر وجه السماء بزرقته الهادئة، ولاحت أشعة الشمس تدفئ الأرض بعد طول برد وخوف، وتعانقت الاثنتان وهما مسرورتان باللقاء، وقد انقشع ظلام الليل الطويل، وخرجت الطيور من أوكارها تملأ زقزقتها الآفاق وتبعيتها الحيوانات الأخرى تسابقها في مرح، وفي لمح البصر اختفت كل الآلام والمآسي وعادت الأرض عذراء كما كانت لا تطؤها قدم بشر، فإذا هي قطعة من الفردوس في جمال مروجها وزهورها وغاباتها، وعاد الأمن يحوم في كل مكان ناشراً بأجنحته البيضاء ألواناً من السعادة والهناء.

وابتسمت الأرض ابتسامتها الساحرة، وقالت للشمس وهي تغتسل بمياه الأنهار الدافئة:

«الحمد لله على كل هذه النعم، ولننس ذلك المخلوق الذي سبب لنا الكثير من العذاب.. ما أغنانا عن عقله ومخترعاته، وهو يدمر بنفسه ما يبنيه... إنه ليس أهلاً للبقاء...»..

وأطرقت تفكر، ثم أضافت:

- «ما وجد سلام منذ وجد الإنسان!!»..



متاع الغرور

على أرض منبسطة مترامية الأطراف لا يرى الناظر إليها على امتداد بصره جبلاً أو هضبة أو ارتفاعاً أو انخفاضاً، ولا يلمح على سطحها الذي لا نهاية له شجرة أو حجرة أو بناية، اجتمع خلق كثير يعدون بالآلاف، لا يظهر منهم لفرط كثرتهم وتزاحمهم غير رؤوس متراسة لرجال ونساء، لا تقترب منهم حتى تدرك من العرق المتصبب على وجوههم والتعب البادي عليهم، وما تقرؤه في أعينهم من خوف ممزوج بالقلق والحيرة، أنهم ينتظرون شيئاً ما، ويترقبون أمراً هو من الأهمية، بحيث قد يجلب لهم السعادة الخالدة، وقد يدفعهم إلى الشقاء الأبدي.

كان الجميع جلوساً في اكتظاظ لم يعرف له مثيل، مطأطئي الرؤوس لا يأبه أحد بأمر أحد آخر، ولا ينتبه الجليس إلى من حوله، إنما الأذهان شاردة والعقول غارقة في تفكير عميق، والقلوب منصرفة إلى ذلك الحدث المنتظر، والنفوس بين إقبال وإدبار، وفرح وحزن، وارتياح واضطراب، لما قد يأتي به هذا اليوم المرتقب.

وفجأة وقف الجميع وقفة واحدة، وشاربت الأعناق، وشخصت الأبصار حين لمع قبالة ذلك المجلس الضخم ضوء أشبه بإشراق الشمس في يوم جميل، لم يلبث أن ازداد إشراقاً ليضيء المكان كله،

ظهرت على إثره ملكة لم يُر لجمالها وحسنها مثيلٌ... تقدمت بخطى ملكية راقية، ترتدي أفخر الثياب، يجلل شعرها الذهبي تاج مرصع باللائى والأحجار الكريمة، لم يعرف أولئك الحضور وجوداً لها في حياتهم المديدة.

كانت الملكة - دنيا - تبتسم ابتسامة ساحرة، وهي تقف في غرور وكبرياء أمام ذلك الجمع الغفير، وحول قدميها خدم وحشم، وجوارٍ وغلمان يخدمونها ويتذللون لها؛ لترضى عنهم.

حارت العقول لمراى هذا الجمال الخلاب، وفغرت الأفواه أمام هذا الحسن الأخاذ، وأيقنت تلك العيون الشاحسة إلى الملكة الحسناء أن هيات بين إشراقة الشمس وإطلالة نور القمر من هذه التي أطلت عليهم بموكبها الفخم، فأذهلتهم عن كل أمر سواها.

انحنى الجمع الغفير للملكة إجلالاً وتعظيمًا، ولم يعتدلوا في وقفتهم حتى أومأت لهم بذلك، فوقفوا وقد بدا الطمع واضحًا في أعينهم، وسال اللعاب من أفواههم، ينتظرون أن تغدق عليهم المنح والعطايا، وتحقق أحلامهم بكرمها وسخاء يدها... كيف لا.. وهي ملكة الدنيا.. بيدها الأمر والنهي، والعطاء والمنع!!...

جلست الملكة على كرسي عرشها تنظر بعينيا الساحرتين إلى شعبها الوفي وعبيدها المخلصين، وبعد صمت بدا لأولئك الحضور دهرًا، رفعت سبابتها وأشارت إلى أحدهم، قائلة: «أنت!!...»..

عرف المشار إليه أنها تعنيه، فأقبل مهرولاً يتعثر في مشيته لشدة فرحته أنه أول المدعوين للوقوف بين يدي ملكة الدنيا، وما إن مثل بين

يديها حتى سجدت تحت قدميها يقبلهما ويبللها بدموع الفرحة التي ملكت عليه نفسه، ففاضت لها عينه... ولم ينهض إلا والخدم يرفعونه عن قدمي الملكة فوقف وقمة العبد أمام ولي نعمته... نظرت إليه نظرة استعلاء، ثم قالت:

«أنت عاشق حسني وجمالي، وأسير سحري ودلالي، قضيت عمرك تخدمني وتعمل على إرضائي، وهأنذا أكافئك على طول انتظارك وجميل وفائك... سأجعلك من المقربين عندي والمؤثرين لدي، فأذيقك من لذاتي ومتعي ما يسحر لبك ويذهل عقلك... اذهب، فأنت السعيد السعيد...»

فخرّ العبد ساجداً يعيد الشكر، ويقبل الأقدام مردداً:

«أنت آلهتنا ولن نكون لغيرك عبيداً!!!...»..

ابتسمت ابتسامة مأكرة، وقالت:

«أقبل أيها السلطان!!!...»..

فأقبل فرحاً مستبشراً، إذ دعتة إليها، وبعد أن أدى واجب الطاعة والولاء قالت:

«أعرف أنك تعشق كرسي السلطان، وتهفو إلى طريق المجد... سأمنحه لك، فأنت الآن سلطان مجيد على أرض ليس لها حدود، افعل ما شئت فشعبك لك عبيد... اذهب فعرشك لن يزول وسلطانك لن يبيد...»..

فخرّ السلطان ساجدًا يعيد الشكر ويقبل الأقدام، ويردد:

«أنت آلهتنا ولن نكون لغيرك عبيدًا!!...»..

جالت - دنيا - بعينها في الواقفين، وأومات إلى أحدهم أن أنت...!! فأقبل مسرع الخطا، جثا أمامها يتمسح بثيابها يتبرك بها، فدفعته عنها، وقالت:

«أنت عاشق درهمي وديناري، وأنت المغرم بالولد، سأمنحك من المال ما يملأ عينك ويرفع مقامك وأرزقك من الولد ما يروي غرورك ويقوي سؤددك... فاذهب أنت السعيد السعيد...»..

فخرّ العبد ساجدًا يعيد الشكر، ويقبل الأقدام ويردد:

«أنت آلهتنا ولن نكون لغيرك عبيدًا!!...»..

بحثت عن الرابع بين الجلوس هو أم بين الوقوف، فإذا هو واقف يتربق، وما إن وجهت له سهام عينيها حتى أقبل يتغنى بالملكة ويشيد بجمالها وكرمها، قالت:

«أست تحب أن يذيع صيتك ويخلد اسمك ويصبح ذكرك على كل لسان؟... سأعطيك ما تريد وأحقق لك ما تحب، إن ذكرك الآن قد تعدى الحدود لا تقف أمام شهرتك الحواجز ولا السدود... اذهب فأنت السعيد السعيد...»..

فخرّ العبد ساجدًا يعيد الشكر ويقبل الأقدام وهو يردد:

«أنت آلهتنا ولن نكون لغيرك عبيدًا!!...»..

وقفت الملكة وفي وقفها إيدان بانتهاء اليوم الموعود، وحيث شعبها تحية الحب الودود، وقالت:

«يا عبادي المخلصين، يا شعبي السعيد... إن الحياة أيام معدودة وتتقضي، فاجعلوها كلها أفراحاً وأعياداً، لا تتبعوا عقولكم، ولا تستمعوا لأصوات ضمائركم، واتبعوا ما تشتهي أنفسكم، وتلذّ في أعينكم، فمن مات على لذة مات شهيداً!!!... انتشروا في الأرض، واستمتعوا بما هو عليها، فإنني أعطيتكم ما وعدتكم، وسأظل أعطي ما دمت لي أوفياء... إنه وعد ولست أخلف وعودي... هيا انصرفوا...!!».

وهمّوا بالانصراف حين دوى في الأسماع صوت تردد صده في الآفاق:

«أيها المغفلون!!! كيف انخدعتم بكلام الملكة المعسول وعطاياها الزائلة؟!... كيف رضيتم العيش من أجل اللذة والمتعة والسعي لتحقيق أحلام دنيوية واهية ومهمتكم في الحياة أعظم وأجلّ؟ إنكم لستم حيوانات، بل بشر، كرمكم الله بالعقل، واستخلفكم في الأرض؛ لتعمروها بالأخلاق الفاضلة والمبادئ السامية، ولتبنوها على أسس متينة وقواعد راسخة؛ ليرتفع البنيان جيلاً بعد جيل... إنكم وجدتم للبناء لا الهدم، والإصلاح لا الإفساد و - دنيا - تدعوكم لنقيض ما خلقت له وفيه هلاككم في دنياكم وأخراكم... فأفيقوا قبل فوات الأوان، فتشقوا شقاء أبدياً...»..

ارتفعت صرخات الاستنكار لهذا الكلام الذي غضب له جمع غفير، ولم يدرك فحواه إلا فئة قليلة منهم، لم ينخدعوا بوعود الملكة، ولم

يغتروا بما دعتهم إليه، وخرجوا عن ذلك الجمع وساروا في طريق آخر أكثر وضوحاً يتصرفون بما يرضي عقولهم وضمائهم ويوافق فطرتهم، ويمنحهم اطمئنان قلوبهم وسكينة نفوسهم، يسهمون في إكمال البناء الشامخ الذي تداول أجدادهم الحكماء على وضع لمساتهم عليه، ويخلدون رحيلهم بما تركوه من صالح أعمالهم وجميل أقوالهم وكريم أخلاقهم، وإنهم لماضون فيه غير نادمين أو ناقمين، فهنئوا في دنياهم، وسعدوا في آخرهم، في حين سارت جماهير عظيمة في طريق اللهو يبحثون عن المتع، ويستمتعون بالذات، ويصرفون أيامهم ولياليهم فيما يجلب لهم السعادة، ويشعرهم بالرضى والسرور على حياتهم.

ومرت سنوات تتبعها السنوات، وإذا بضيف ثقیل يحلّ بالديار يزرع الخوف والرعب في النفوس، وإذا بما بين الأيدي من مال وولد وجاه وسلطان وشهرة وخلود، وما تذوقته القلوب من متع وأفراح... إذا بكل شيء يبدو سراً أمام هذا الضيف الذي جاء فجأة؛ ليقض مضاجع ويهدم اللذات ويفرق الجماعات... إنه الموت...

بالساحة الكبيرة نفسها اجتمع خلق كثير يدعون ملكتهم للوقوف عند حاجتهم، ظهرت بنفس السحر والجمال، وسألتهم من فوق كرسي عرشها الفخم:

«ما بكم تبكون وتتصايحون؟... ما حاجتكم؟!...»..

فصرخت تلك الحناجر صرخات الندم والحسرة:

«أغيثينا أيتها الملكة العظيمة... لقد عملنا بقولك وسرنا في طريقك نتذوق متعك ونستمتع بلذائد العيش على أرضك، ولم نستق

إلا بعد أن ولى الشباب وغزتنا الشيخوخة بضعفها وآلامها، وإذا الموت يطلبنا، وحفرة القبر تتادينا، ونظرنا حولنا هل أعددنا العدة لرحلة الآخرة وهيانا الزاد لما بعد الموت؟!... فإذا الحقيقة المرة تصفعنا: لا شيء بين أيدينا غير عمر ولى كأن لم يكن، وذنوب يخيفنا وزنها حين نقف بين يدي الخالق الجبار... أنجدينا يا ملكتنا، ألم تعدينا بعطاياك التي لا تنفذ؟!... فأين وعودك، وأين عهدك؟!...»

قهقهت الملكة «دنيا» بأعلى صوتها، ثم قالت وهي تتضحك بخبث:

«يا لكم من أبله وبليد!!... ألم تعرفوني بعد؟!... إنني «الدنيا» أعد ولا أفي!!... إنني «متاع الغرور» وعدتكم وما أعد إلا غرورًا، ومغفل منكم من صدق وعدي وسار في دربي... انصرفوا فحاجتكم ليست عندي، واسألوا من أنا وأنتم من خلقه وتحت رحمته».

وانصرفت الملكة عن هؤلاء وتركتهم يحصدون الندم ويبكون بدل الدموع دماً، وتوجهت إلى الشباب تعدهم وتمنيهم، تعطي لهذا المال والولد، وتمنح الآخر السلطان والمجد، وتهدي الثالث الشهرة والخلود، وتغرق أثيرها في متعها ولذاتها... سارت وحولها الخدم والجواري يخدمونها والشباب وراءها هائمون بها، يتبعون خطواتها، ويرددون:

«أنت آلهتنا ولن نكون لغيرك عبيدًا!!...»..



obeikandi.com

العذاب العذب

لن تنسى أبداً اليوم الذي رأيته فيه... كانت واقفة كعادتها تنتظر الحافلة التي تنقلها إلى الجامعة حيث تدرس، حين وقع بصرها عليه، كان يبدو مستعجلاً وينتظر أيضاً حافلة أو سيارة أجرة تنقله إلى مقر عمله. جذبها إليه سماحة محياه وإشراقة وجهه، وأعجبها منه وقفته المستقيمة التي أوحى لها اعتداده بنفسه، وخطواته الثابتة التي أشعرتها بقوة شخصيته.

وجاءت سيارة أجرة فمضى فيها، وجاءت من بعدها حافلة فركبتها ومضت لشأنها، وشغلتهما دراستها عن كل شيء، حتى عن ذلك الوجه الوسيم.

مرت أسابيع، بينما هي واقفة وقفته تلك تنتظر الحافلة، إذ وقعت عينها عليه مرة أخرى، فعجبت لتلك الإشراقة الوضيئة التي لم تغادر وجهه، والسماحة التي لم تفارق محياه، وراقبته من طرف خفي، فإذا وقفته المستقيمة وخطواته الثابتة وقعتا من نفسها موقعاً حسناً، ومضى كل منهما لشأنه كالمرّة السابقة، وإذا هي تنسى في زحمة دراستها وامتحاناتها كل شيء.

وتمضي الأسابيع والأشهر تراه فيها أحياناً قليلة، وكثيراً ما كانت تعجب به وترتاح لرؤيته، وتتساءل بينها وبين نفسها: من يكون؟! فإذا

ركبت الحافلة ودخلت الجامعة لم يعلق بذاكرتها شيء عنه، حتى تراه مرة أخرى، وهكذا دواليك.

ودون أن تشعر كانت لا تتركب الحافلة العائدة إلى قريتها نهاية كل أسبوع حتى تبدأ عيناها في البحث عنه، فإذا لم تجده بين الجالسين تعلق بصرها بباب الحافلة؛ علّها تحظى برؤيته... كم مرة عادت إلى بيتها والألم يعتصر قلبها، وحزن دفين يملأ نفسها؛ لأنها لم تلقه في طريقها، وكم هي نادرة تلك اللحظات التي رآته فيها فتعود إلى البيت، وهي لا تسير على الأرض بقدميها بل تحلق في السماء بأجنحة السعادة التي لم تعرف لها مثل هذا الطعم قبل الآن.

ووقفت مع نفسها وقفة صريحة، وسألتهما عما غير أحوالها وبديل أمورها، فإذا بها تعلن أنها تحب...! إنها أول مرة تتجذب فيها إلى شخص من الجنس الآخر، وتعجب به ليتحول ذلك الإعجاب إلى حب عميق يغير حياتها، ويستولي على كل مشاعرها. غاب ذلك الشاب عن ناظرها ولم تعد تراه، وبقي طيفه محفوراً في ذاكرتها يلح في البقاء بين عينيها لا يغيب قيد أنملة، ولم يكن هذا بإرادتها، وإنما بفعل قوة خفية هزمت قوتها وجعلته يتربع على عرش قلبها الذي لم يحرك أوتاره أحد من قبل. ولم تستطع الدروس الكثيرة والامتحانات المتعاقبة والجلوس إلى الأهل والأصدقاء ولا أي شيء آخر إبعاد ذلك الطيف عن خيالها، بل كانت الأيام تزيد إلحاحاً في الظهور، فلم يكن يأتي ذكره إلا يضطرب قلبها اضطراباً عنيفاً، وتشعر بالحرارة تسري في كامل جسدها لتصعد بعدها إلى وجهها فتشتعل وجنتها احمراراً كأنه مائل أمامها يحدثها. وبقدر ما كانت سعادتها عظيمة بكل هذا الجديد الذي

طراً على حياتها آلمها غيابها عن عينيها، بل إن آلامها لتعظم في نفسها حتى أصابها أرق فظيع عذبها ليالي طويلة، وأوشك هذا الأرق أن يتحول إلى مرض جسدي لولا أن تداركتها يد الرحمن بالعناية. وكثيراً ما كانت تجلس إلى دروسها أو مع صديقاتها أو بين أفراد عائلتها تقاسمهم الحديث، فإذا هي شاردة الذهن، بعيدة عنهم، راحلة إليه عبر بحور خيالها، ودون وعي منها تجد نفسها تفكر فيه، وتستعرض في ذاكرتها كل ما يعنيه، عن اللباس الذي يرتديه، عن سكناته وقسمات وجهه، عن أصدقائه ومكان عمله... وإذا هي تحب كل هذه الأشياء وتعشق كل ما له صلة به. وأيقنت أنها دخلت دنيا العاشقين، ولمست بنفسها ما يكابده هؤلاء من عذاب، لكنه عذاب عذب، تمتزج فيه السعادة بالشقاء، والفرح بالحزن، والرضى بالحرمان، ويعطي للحياة لوناً متردداً بين السواد والبياض، وطعمًا متأرجحاً بين المرارة والحلاوة.

مرت أشهر، وهي تكابد هذه الآلام في نفسها دون أن تجرؤ على إخبار أحد بأمرها، فمثل هذه المشاعر بالنسبة لها أمر مقدس ونبيل لا يمكنها الإفضاء بها إلى أحد. وهنا وجدت نفسها تتساءل عن مشاعره هونحوها: هل لفتت أنظاره في شيء؟ هل يكن لها من الحب ما تكنه له؟! أم أنه لا يعلم حتى بوجودها ولا يعيرها أدنى اهتمام؟... وتذكرت قول شوقي:

موقعي عندك لا أعلمه أه لو تعلم عندي موقعك، وتحركت في نفسها كرامة المرأة، وأصبحت تحزن عندما لا تراه.. وتحزن إذا رآته، فإذا لم تره حزنت لبعده عنها وحاجتها إليه ورغبتها في رؤيته ولو نظرة خاطفة، فإذا رآته حزنت أيضاً؛ لأنه قريب منها بعيد عنها!!،

تراه فلا تستطيع أن تفعل شيئاً لوصاله، وتتمنى لو يتحرك هو بخطوة نحوها؛ لتضع قلبها بين يديه فلا يبدي حراكاً ولا يظهر عليه إلا ما يؤكد لها أنه ناء عنها بجسده وفكره وروحه جميعاً، وتجاهد بكل قوتها؛ لتثأر لكرامتها، وتبذل كل شيء لتستعيد حياتها التي كانت تحياها قبل أن تراه، فلا يزيدا جهادها وبذلها إلا عذاباً وألماً دون أن تفلح في الوصول إلى مبتغاها.

وتتخرج في العام نفسه في الجامعة، وتستقر في بلدها لتجد عملاً بها، ويعود هو إلى بلده مدرساً في مدارسها، فتسعد بذلك أيما سعادة، وتفتح نفسها على آمال جديدة وأحلام سعيدة تجمعهما أبد الدهر تحت رباط الزوجية المقدس، فإذا بها ترى نفسها معه في بيت واحد يتقاسمان حلو الحياة ومرها، وتمتزج حياتهما لتصبح حياة واحدة لا انفصال لإحدهما عن الأخرى مثلما لا استغناء لأحدهما عن الآخر. وتجمع بينهما الأقدار في طريق واحدة، فترفع بصرها إليه في استحياء؛ عله ينظر إليها فلا يرفع بصره نحوها، ويكمل سيره غير منتبه لوجودها، فتشعر كأن سكيناً مسمومة غرست في قلبها، فأدمته وتتحجر الدموع في مقلتيها ولا تلمح على صفحة وجهها إلا اصفراراً وهدوءاً أشبه باصفرار وهدوء وجوه الموتى.

إنها فتاة مثقفة وذات شهادة عالية، ويشهد الكل بأدبها وحسن أخلاقها، وهي ليست من الدمامة، بحيث ينفر منها الرجال، ولكنها متوسطة الجمال، فما الذي يمنع هذا الشخص من التقدم لخطبتها واتخاذها زوجة له؟... أيعتقد أنها ليست أهلاً له أم يرى نفسه دونها بكثير؟... ثم لماذا وقع من نفسها ذلك الموقع، ولم تقع من نفسه أي موقع؟...

كم ساءلت نفسها هذه الأسئلة دون أن تجد جواباً يشفي حرقة قلبها، وبرغم أن صوت نفسها يجيبها بالصراحة التي عهدتها منه: «إنه لا يحبك!». إلا أن حبها له يصمُّ أذنيها عن هذا الجواب القاتل؛ لتمني نفسها بالأحلام والآمال وتنتظر في صبر اليوم الذي سيقبل نحوها طالباً يدها للزواج، وإنها - من فرط حبها - لتراه قريباً.

وتمر أربع سنوات لم يتغير من حالها شيء سوى أن تقدم لخطبتها العديد من شباب البلدة، ورفضتهم في لين ورفق، فكل جارحة من جوارحها تعيش مع ذلك الشاب الذي لم يرضَ قلبها بديلاً عنه.

لكم تمنّت أن يختارها بنفسه مثلما اختارته بنفسها وتدخل حياته مثلما دخل حياتها، وكم رغبت أن يسعى إليها، فإن أبسط شيء تطلبه المرأة أن يسعى الرجل طالباً وصالها، حالماً ببناء عش الزوجية معها. لقد منعها حيائها أن تفعل شيئاً يكشف عواطفها تجاهه؛ لأنها كانت تفضل أن تتجذب روحه نحوها مثلما انجذبت روحها نحوه دون أن يكون لها أو لغيرها يد في ذلك.

ولم يساعدها على الصبر طيلة هذه السنوات سوى توكلها على الله فيما ابتلاها به، ولجوئها إليه في كل حين... لقد كان الدعاء سلاحها مع الصبر، لم تضعف أو تياس فتثقتها بقدرة الله ورحمته وعدله متمكنة من نفسها تمكن الإيمان نفسه من قلبها. وكانت مشاعرها نحوه تتغير تغير أحوالها النفسية، فإن كانت في أحسن حال ورأته فرحت فرح الأطفال وتمنت لو كانت برفقته، وإذا رأته وقد تذكرت قسوته وجفاءه غضبت منه وودّت لو يثور بركان غضبها في وجهه؛ عليه يصحو من

غفوته وينتبه لوجودها، ثم إذا رآته مرة أخرى وقد هدأت ثورة نفسها وانطلقاً لهيب غضبها أتبعته بنظرات باردة، وهي تشعر ببرودة عواطفها نحوه برود تلك النظرات، فقد لا يستحق منها كل هذا الحب، وربما ليس أهلاً لأن تتعذب بسببه كل ذلك العذاب..

وتزورها إحدى صديقاتها ذات يوم؛ لتخبرها من خلال حديثها عن خطبة فلان لفتاة من المدينة المجاورة، فوقع الخبر عليها وقعاً كاد يظهر أثره على وجهها لولا ما بذلته من جهد لإخفاء إحساسها المرير بالألم وابتلاع دموعها التي أوشكت أن تقضحها. وما إن غادرت صديقتها المكتب حتى نهضت من مكانها، وتوجهت إلى النافذة ورفعت بصرها إلى السماء... وفي لحظات قصيرة عبر ذهنها شريط ذكرياتها معه منذ أول يوم دخل فيه حياتها، وانطلقت تحدث نفسها:

«ما أغباني، حين اعتقدت أن روحه ستجذب نحو روحي مثلاً انجذبت روحي نحوه!.. يا لسذاجتي حين أوهمت نفسي أن مشاعر الود إن بلغت درجة من الصدق والعمق فإنها ستقابل حتماً بمشاعر مثلها إن لم تقابل بمشاعر أشد منها عمقاً وأكثر صدقاً!.. كيف صدقت أوهاماً من صنع نفسي وانتظرت خلال سنوات تحقيق أحلام واهية لم تتجاوز يوماً حدود ذاتي؟!... هل يمكن للإنسان أن تخدعه مشاعره لهذه الدرجة وأن تكذب عليه نفسه إلى هذا الحد؟!...»..

وأحست بالدموع تهبط ساخنة على خديها، فأسرعت بالعودة إلى بيتها، وأغلقت على نفسها باب غرفتها، وبكت كما لم تبك في حياتها بصوت مكتوم وعبرات مختنقة.

الوطن الخالد

على الرغم من أن الشيخ إبراهيم يبدو إنساناً مريضاً عاجزاً ناء كاهله بالسنين التي عاشها على وجه هذه الأرض، إلا أن صدره يخفي قلباً ينبض بالحياة وكأنه ابن العشرين ويحمل في رأسه عقلاً يشع بنور يريه ما لا يراه الآخرون وذاكرة تختزن في أعماقها كنوزاً هي كل زاده فيما تبقى له من حياة، وعلى ذكراها تعيش نفسه وتقتات.

وإذا كان أبناء الشيخ إبراهيم يحرصون على الاجتماع بوالدهم في المناسبات والأعياد، فقد كانوا أحرص على ذلك في يوم محدد من العام يعلمون أنه أحب الأيام إلى أبيهم وذكراه أعظم أثراً في نفسه من أي شيء آخر مرّ عليه في حياته المديدة.

خرجت الشمس من مخبئها وأرسلت أشعتها الذهبية معلنة عن ميلاد يوم جديد هو الخامس من شهر حزيران، وما هي إلا ساعات قلائل حتى دبت الحركة في بيت الشيخ إبراهيم وكأنه يوم عيد، بل هو يوم عيد للعائلة كما هو عيد للوطن بأسره. وبعد تناول طعام الغداء جلس الجميع في غرفة فسيحة ينتظرون قدوم الأب الذي أقبل متباطئاً، وهو يرتدي زي المجاهدين الذي لازمه سبع سنوات كاملة كانت من أقسى سنوات عمره الطويلة، ويحمل بين يديه المرتعشتين علمَ الجزائر الذي

لم تداعبه رياح الحرية إلا في مثل هذا اليوم منذ أزيد من ثلاثين سنة خلت.

توسط الشيخ إبراهيم مجلس أبنائه، والجميع يحدق في النور الذي أشرق له وجهه والابتسامة التي كست محياه فزادته هيبة وجلالاً، وأطرق لحظات ثم رفع بصره فإذا بالدموع تتلألأ في عينيه ثم تهبط على خديه فتبلل العلم الذي يحتضنه بين يديه. عمّ الغرفة صمت رهيب لم يقطعه غير الشيخ بصوته الأجش يقول:

«تدركون يا أبنائي، مكانة هذا اليوم في قلبي وحرصى على اجتماعنا في هذه الغرفة منذ سنوات... كل ما حولنا يبدو كما هو إلا شيئاً واحداً، أنني أصبحت شيخاً هرمًا أخذت نواكب الدهر نصف صحتي والتهم المرض النصف الآخر، في حين أصبحتم شباباً يافعين تستقبلون الحياة بنهم وشوق، ولا أعتقد أنكم نسيتم ما كنا نتحدث عنه خلال تلك الجلسات...».

«لا يا أباي، ما نسينا شيئاً مما حدثنا عنه... عن معاناتكم في أثناء وجود الاحتلال الفرنسي وما قاسيتموه من ظلم واستعباد، وعما جرى خلال ثورة الفاتح نوفمبر، بل إننا - من كثرة ما سمعناه عن هذه الثورة - نشعر كأننا حملنا السلاح معكم لاسترجاع حرية وطننا العزيز».

أشرق وجه الوالد بابتسامة رضى، ثم قال:

«كان من واجبي، وقد ذقت طعم الذل والهوان وشربت من كأس الظلم والظغيان أن أشعركم بما كنا نلاقيه؛ لتدركوا أن اغتصاب أرض بأسرها واستعباد شعب بأكمله ظلم لا نظير له، وأن الظلم ظلمات

حالكة لا يعقبها فجر إلا بثورة على الظالم المستبد واستئصال وجوده من جذوره».

عقب «علي» المعلم، قائلاً:

«تأكد يا والدي، أننا نقدر ما تألمتم له، فما رويته ونحن صغار رسخ في أذهاننا ونحن كبار».

أكمل الشيخ إبراهيم حديثه:

«إن الليل مهما طال أمده لا بد أن يعقبه الفجر، والغيوم القاتمة السوداء إن تكاثفت وحجبت نور الشمس لا بد أن تختفي ليظهر إشراق الشمس واضحاً يرسل الدفء والضياء... كذلك الظلم هو كالليل وكال سحب السوداء كان لا بد له من نهاية ولو بعد مئة عام!... ثرنا على الظلم المستبد، بعنا حياتنا وأهاليها وديارنا لشراء شيء واحد اسمه «الحرية»، فالحياة بدون حرية أقصى أنواع الموت. وكانت ثورة سبع السنوات والمليون ونصف المليون شهيد، ضريبة ضخمة لكلمة قليلة الحروف عظيمة المعنى الطريق إليها دموع ودماء، جثث وأشلاء، آهات وأنات...».

صمت الشيخ وقد عاد بذاكرته إلى سنين الألم والمعاناة، ثم نظر إلى العلم الوطني نظرة عامرة بالحب وابتسم، قائلاً:

«كان يوماً رائعاً، بل كان من أسعد أيام حياتي، أشرقت فيه الشمس فكأننا نرى إشراقها لأول مرة وغردت العصافير، فكأننا لم نسمع تغريدها إلا في ذلك اليوم البهيج، وخرجت كل بهيمة من مخبئها تعدو سعيدة، وقد صفا لها وجه السماء بعد طول إظلام، وعمّ الطبيعة هدوء

جميل لم ترَ له مثيلاً منذ أمد بعيد. أما نحن فقد خرجنا كالمجانين لا نصدق - وأثار الدموع لا تزال في مآقينا وبقع الدم تلطخ ثيابنا - أن فجر الحرية أشرق من جديد، وأن هذا العلم سيرفرف في سمائنا إلى الأبد... كانت فرحتنا يومها أعظم من أن توصف وأعمق من أن يعبر عنها بالكلمات».

لمعت عينا الشيخ إبراهيم ببريق الفرحة، ثم واصل قائلاً:

«ما أسعدنا ذلك اليوم! وقد ملأنا الشوارع والأزقة، صغاراً وكباراً، رجالاً ونساءً، نهتف بصوت واحد:

«تحيا الجزائر.. تحيا الجزائر..!!».

ووقف الشيخ في تلك الغرفة الفسيحة يلوح بالعلم الجزائري صارخاً ملء فيه:

«تحيا الجزائر.. تحيا الجزائر..!!»، واختنق صوته بالدموع، فجلس يبكي بكاء طفل صغير.

إن إبراهيم الذي قام من مجلسه ينادي بحياة الجزائر بتلك الحماسة ليس إبراهيم الشيخ العاجز المريض، بل الشاب القوي الذي جاهد في ثورة التحرير وشهد يوم الاستقلال العظيم. هو لم يعد إلى ذلك اليوم بذاكرته فحسب بل بجسده أيضاً، لقد قهر العجز والمرض وعاد إلى الوراء بأزيد من ثلاثين عاماً!!...

مرت دقائق معدودة كان فيها الوالد غائباً بأحاسيسه، أما الأبناء فقد أدركوا أن الخامس من شهر (حزيران) يوم عيد بحق، أليس هو اليوم

الذي ولّى فيه ليل الاحتلال وأشرقت شمس الحرية والاستقلال؟! أليس هو اليوم الذي تحررت فيه الأجساد والألسنة والأقلام من قيود العبودية التي قتلت كل جسد وأخرست كل لسان وخنقت كل قلم؟! أليس - بعد كل هذا - هو اليوم الذي عادت فيه الأرض لأصحابها والبيوت لسكانها، وعاد لكل ذي حق حقه وهو قرير العين، عزيز النفس، مطمئن الفؤاد؟...

عاد الشيخ الوالد من سياحته في ذلك الماضي البعيد إلى هذا الحاضر القريب وأخذ يتأمل وجوه أبنائه وتنفس الصعداء، ثم قال:

«لقد آليت على نفسي قبل ذلك اليوم ألا أتزوج امرأة ولا أسكن بيتاً أو أشتري طعاماً ما لم أستعد عزة بلادي أو أموت دونها، وعندما أكرمنا الله بفضلته ورزقنا النصر على العدو، قررت أن أتزوج وأنجب أطفالاً أربيهم على حب هذا الوطن والمحافظة عليه وأضع بين أيديهم الأمانة التي تداول أجدادي على حملها، وهأنذا أضع هذا الوطن أمانة بين أيديكم، حافظوا عليه حفاظكم على أنفسكم بل أشد حفاظاً، وإن كنا نحن سعيًا لتحريره فعليكم بالسعي لتطويره... لقد حرصت على تعليمكم، بنين وبنات وجعلت منكم الطبيب والمعلم والمهندس، لأنني أوقن أن صرح الوطن لا يُبنى إلا بالعلم والعمل. والأمم المتقدمة ما سبقتنا في التقدم إلا بعلمها وعملها، ولتذكروا دائماً أن هذه الأرض شربت من الدماء أكثر مما شربت من الماء، وأن هذه الحرية التي تتعمون بها أمانة في أعناقكم، إياكم أن تبخسوها حقها أو تستهينوا بقيمتها. ولا يموتن أحدكم إلا وقد أدى واجبه نحو وطنه بالقدر الذي يستطيعه، ولتربوا أبناءكم على ما ربيتكم عليه؛ حتى يكونوا أهلاً لحمل هذه الأمانة التي حملتكم إياها...».

وصمت الشيخ إبراهيم؛ ليرى أثر حديثه على ملامح أولاده، فإذا الكل مستمع إليه في انتباه وكأنهم يطالبونه بالمزيد من هذا المعين الذي لا ينضب، لكن الشيخ استعان بأحدهم، واستأذن في الخروج وعاد بعد لحظات مرتدياً جبته وبرنوسه حاملاً في يده بذلته العسكرية وفوقها العلم الوطني وتوجه بها إلى أحمد، ووضعها بين يديه، وقال له:

«هذه جزء من تاريخنا، فحافظ عليها، فمن ذكر ماضيه عاش حاضره في ثقة، وبنى مستقبله في عزم، ومن تنكر لماضيه كان كالشجرة من دون جذور، فلا هي تنمو وتكبر وتؤتي ثمارها، ولا هي تزول، وإنما موته أنفع لوطنه من حياته».

تجربة في الإدارة

جلست في مكثبي المنعزل عن مبنى الإدارة حيث أعمل، الهدوء يعم المكان سوى أصوات أطفال يلعبون تصلني خافقة، نار الغضب لا تزال ملتهبة في داخلي، أشعر بكل شيء يغلي في أعماقي كبركان يوشك أن ينفجر بين لحظة وأخرى، لم يعد ذهني يستطيع التركيز في شيء، ولم أعد أقوى على التفكير إلا بهذا المشكل الذي طفا على السطح مرة أخرى، وقد اعتقدت أنه غاص في الأعماق لغير رجعة.. كانت الأفكار تتزاحم في مخيلتي حين دُق الباب ودخل الحارس يبلغني أن المدير يريدني فوراً. كنت أنتظر استدعاءه لي بعد رفضي للمرة الثانية أداء عمل ليس من مهامي، ولا من اختصاصي..

لكم أعجب من الدنيا كيف حملتني بأحلامي التي لم تسعها الأرض، وأجلستني على كرسي خلف مكتب في إدارة!!..

أذكر أن أحد العلماء زار جامعتنا ذات يوم وألقى محاضرة قيّمة، وقد رسخت في ذهني جملة قالها، أصبحت أذكر معناها أكثر من أي وقت مضى، لقد قال: «العمل بالإدارة جهد وعمر ضائعان!!..». كان لا بد لي أن أعاني معاناة أليمة؛ لترويض نفسي على قبول مثل هذا الجهد الضائع والرضوخ لهذه البطالة المقنعة..

كان الجلوس خلف مكتب، بين جدران أربعة محاطة بأوراق وملفات لا تحمل بين طياتها عملاً ذا أهمية كبرى خلال يوم كامل إلا بعضه، ولخمسة أيام متتالية من كل أسبوع أضحت لفرط ترددها يوماً واحداً يتكرر... كان كل هذا مملاً للغاية، أشعر به ناراً تلتهم عمري يوماً بعد آخر، وكان الإحساس بأنني «أمة» لهذا العمل يكاد يقتلني، إذ كيف يعقل أن أقبل بهذه الأغلال التي تطبق على أنفاسي، وتكاد تخنقني من أجل دراهم معدودة أرى أنني أبيع حياتي من أجلها!!!...

إن أول شعور راودني، وأنا أجلس خلف مكتب أنني أحلت على التقاعد، وأنها أيام وأنزلق بدوري نحو القبر!!!...

وتذكرت المدير... يا له من رجل متعجرف!!! إنه من هواة ذرّ المشكلات في طريق موظفيه ومن عاشقي التسلط وحب الظهور، وهو من الذين يقضّ مضجعهم عقد «الأنا» التي تزداد وطأتها أمام خريجي المعاهد والجامعات. لا يمرّ يوم إلا يصطنع فيه مشكلاً جديداً، ولا يتوقف عن إثارة موظفيه بشتى السبل لإذلالهم، فيعقبه ذلك شعور غامر بالنشوة والانتصار.

أنهضتني تلك النار المتأججة من مكاني على غير وعي مني، وبخطوات ثابتة توجهت إلى مكتب المدير. كان يجلس خلف مكتبه العريض يتظاهر بقراءة بعض ما تراكم حوله من الأوراق والدفاتر، رفع بصره إليّ وقال محاولاً تصنع الهدوء:

«أخبرك السكرتير أنني كلفتك بأداء عمل، أليس كذلك؟».

أجبتة دون أن أنظر إليه:

«بلى».

«أخبرني أنك رفضت القيام به؟...».

«نعم... هذا صحيح».

فسأل محاولاً تجاهل كل شيء:

«لماذا؟...».

«أخبرتكم قبل اليوم أن هذا العمل ليس من مهامى، وأننى مسؤولة فقط

عن عملى فى مجال اختصاصى، أما عداه فليست مسؤولة عن شيء!!».

انتفض غاضباً وصرخ:

«أنا هنا المسؤول، وأنا فقط من يحدد المسؤوليات، وليس أحد

غيرى، وعندما أصدر أمراً يجب أن ينفذ، أفهمت؟...».

أجبت بهدوء كاد يفقده صوابه:

«كلانا موظف مسؤول له حقوق، وعليه واجبات، ولسنا مطالبين

بأكثر من أن نعمل على احترام حقوقنا وأداء واجباتنا، ومسؤوليتك

فى توزيع المهام هى فى تحديدها حسب اختصاص كل موظف والعمل

الذى عيّن من أجله، فالتقنى له عمله المحدد، والإدارى أيضاً والحدود

بينهما واضحة المعالم، وهذا العمل بالذات إدارى بحت، لا يمكن أن

تكون لى يد فيه».

فقال بنبرة هادئة:

«ألا ترين أنك تعقدين الأمر، والعمل المطلوب منك لا يتطلب جهداً كبيراً».

نظرت إليه لأرى علامات المكر والخبث مرتسمة على وجهه، إنه يغضب ويلين في آن واحد من أجل الوصول إلى هدفه دون عناء. قلت وأنا لا أزال على وقفتي:

«المشكلة ليست في العمل، وأنت تعلم أنني أستطيع القيام به على أكمل وجه، إنما المدة التي قضيتها رفقتكم علمتني أن الإدارة عالم آخر يسوده الغموض والالتواء وانزلاقات خطيرة قد تؤدي إلى المهالك، ورأيت كيف يضع معظم الإداريين أقنعة على وجوههم، ويستبدلونهم كما يستبدلون ثيابهم حسب المصالح والأهواء، وأنا لست من الذكاء بحيث أستطيع فهم ذلك الغموض والالتزام أو ألبس وجهي أقنعة تختلف باختلاف الوجوه التي أقابلها... لذلك - وحتى أحمي نفسي - أكتفي بإنجاز العمل الموكل إلي في مجال اختصاصي فقط وأن أضع بيني وبينكم حاجزاً متيناً ولا أدري هل سأنجو بعد كل هذا أم لا؟!!...».

رمقني بنظرات ساخرة، وقال:

«أنحن بمثل هذه الفظاظة؟؟!!...».

«إنه رأيي بكل صراحة».

«احتفظي برأيك لنفسك، ولست بحاجة لفلسفتك... هكذا الجامعيون يعتقدون أنهم أكثر فهماً من غيرهم...!!...».

«بل نستخدم عقولنا ونحافظ على شخصيتنا، وندافع عن مبادئنا، وهذا ما لا يعجبكم أبداً...».

نقد صبره، فصرخ قائلاً:

«كفى ثرثرة... أنت مصرة على موقفك؟...».

«كل الإصرار».

«ألم تعتبر من الدرس السابق الذي لقنته لك؟... سأضيف إنذاراً

آخر لملف عملك، وسأحيلك إلى المجلس التأديبي!!...».

قلت، وأنا ساكنة.. لا يرتد لي جفن:

«لا تعتقد أن سكوتي في المرة السابقة كان ضعفاً مني، بل كان دفعاً

بالتي هي أحسن، وهذا ما جعلك تتجراً عليّ مرة أخرى. لكن ثق هذه

المرة أنني لن أسكت عن أي إجراء تتخذه ضدي، وبدلاً من أن ترسل

لنا الوزارة تعليمات صارمة عن تحسين العلاقة بين الإدارة والمواطن،

سأجعلها ترسل تعليمات أكثر صراحة عن إعادة النظر في العلاقة

بين المسؤول والموظف!!...».

ثم أضفت، وقد زال هدوئي، وتغيرت نبرة صوتي:

«خرجنا من الجامعة بفرحة أننا سنصبح أخيراً بناءً لهذا الوطن

الذي أعطى لنا الكثير، وكنا نتظر أن نجد الأيدي مفتوحة لاستقبالنا

والطرق ممهدة أمامنا، فإذا البطالة تضرب بكفها القاسية على خدنا؛

لنوقفنا من أحلامنا الواهية. وعندما زال هذا الشبح وبدأنا العمل

بنفس جديد وإرادة قوية، كنا نأمل أن نجد القدوة أمامنا من رجال هذه

الأمة ممن بنوا وأعطوا فناً أخذ منهم، ونقتفي آثارهم، ونكمل ما بنوه،

لكننا صدمنا مرة أخرى صدمة حطمت صرح آمالنا، وإذا بنا نكتشف

أن لا مكان للبناء في هذه البلاد، الكل يحمل معولاً للهدم يخرب الأنفس والعقول والأرواح... وأنت واحد من هؤلاء، ترفض خطاب العقل والتشاور، ولا تفهم غير خطاب القوة والتسلط... لكن ثق بأنك أصغر من أن تمارس علينا قهراً، أو تفرض علينا أمراً؛ لأننا شباب هذه الأمة وإطاراتها، حاضرها المشرق ومستقبلها المضيء ولا مكان لأمثالك في هذا الوطن الغالي الذي لن يوقفه من كبوته سوانا... جرب باتخاذ أي قرار ضدي، وسترى بنفسك ما أنا فاعلة».

واستدرت تاركة إياه فاغراً فاه من الدهشة، فأتبعني بقوله، وأنا تأهب للخروج:

«أصبحت تحسنين الكلام، وقد كنت من قبل لا تتفوهين بكلمة!!...».

فقلت ومقبض الباب في يدي: «أذكر حين قلت لي ذات يوم ناصحاً: إذا أردت أن تعيش في هذا الزمن فلا بد أن تضربي بكف من حديد... إن كان لا بد من ذلك لأعيش، فسأبدأ كفاحي من هنا!!!...».

خرجت من عنده وأنا أشعر بالنار الملتهبة في داخلي تنطفئ ويعقبها إحساس مريح بالاطمئنان. وانطلقت أ همس لنفسي:

«لو ذاق المرء حلاوة الانتصار، وقارنها بمرارة الانكسار وذل الاستسلام لما جبن أو خاف من مواجهة أي موقف».

لقد كان رفعي لهذا التحدي أول خطوة للانتصار.



دوامة!!

وقف سعيد وسط المدينة فاغراً فاه من الدهشة وعيناه شاردتان كمن يبحث عن شيء أضاعه وسط الزحام الشديد، كان يسير على غير هدى، ويسلك طرقاً ملتوية طويلة دون أن يكون في ذهنه هدف محدد يسعى للوصول إليه. وعلى بعد عشرات الكيلومترات كانت عائلته تبحث عنه منذ الصباح حين خرج ولم يعد.

جلست زوجته تبكي وحولها أطفالها الثلاثة يشاركونها البكاء، بينما تعلق طفل رابع بصدرها يمتص قطرات الحليب المتبقية في ثديها، وقد أنهكه الجوع بعد غياب أمه أغلب اليوم؛ بحثاً عن أبيه... وارتفع نحيب المرأة، وهي تقول:

«أين أنت يا سعيد، وماذا حلّ بك؟ ... ليتك تطل علينا؛ لنراك سالماً معافى...».

فقالت إحدى قريباتها تهدئ من روعها:

«سيعود، تيقني من ذلك، ستزاح الغشاوة من عينيه، ويعرف طريقه فيعود إلى بيته، ولو في منتصف الليل!!...».

لم تبال الزوجة بكلامها، وواصلت بكاءها بصوت مكتوم حين دخل أخوزوجها حزيناً منكسراً:

«لم نعرث له على أثر... يبدو أنه ركب الحافلة، وذهب إلى المدينة... من المؤكد أن حالته عادت إليه، فتسي من يكون، وإلى أين يذهب!...».

كان سعيد شاباً تجاوز الثلاثين بقليل، فارغ الطول، نحيل الجسم، أصبحت بشرته أقرب إلى السواد منها إلى السمرة منذ زواجه وإنجابه لأربعة أطفال، لم يسعد بقدمهم بقدر ما أجده التفكير في إعالتهم، وراتبه الشهري لا يكاد يقبضه بيمناه حتى يصرفه بيسراه في أيام قليلة.

جلس في مكتبه الضيق محاطاً برزم الأوراق والدفاتر والمستندات، كان غارقاً وسطها لما دخل عليه المدير العام، وقال زاجراً:

«لماذا تأخرت في إحضار الملف الذي حدثت عنه؟».

«إنه بين يدي، سأكمّله حالاً وأحضره لك...».

«والمواد التي طلبت منك إحضارها من شركة البناء، لماذا لم تتحرك حتى الآن، والشاحنة في الخارج تنتظرك منذ أكثر من ساعة!...».

فقال سعيد، والعرق يتصبب من جبينه:

«يا سيدي المدير، لقد استعجلتني في إحضار هذا الملف فكان يجب إنهاؤه قبل أن أذهب، فكيف تريدني أن أقوم بالعملين في الوقت نفسه؟».

فصرخ المدير في وجهه، قائلاً:

«لا يهمني إن كان يكفيك الوقت أم لا، المهم عندي أن تقوم بكل ما أكلفك به... اسمع يا سعيد، حياتك وحياة عائلتك متوقفة على عملي هذا، فإن كنت حريصاً على لقمة عيشك، فيجب أن تنفذ ما أطلبه منك... إنه إنذار فلا تغضبني منك، وإلا اتخذت ضدك إجراء ستندم عليه... هل سمعت؟!».

وخرج المدير من عنده، وتركه في حالة من الغضب كادت تعصف به، وهو يتمتم:

«ماذا يظنني؟!... آلة مبرمجة عليها القيام بكل شيء في وقت ضيق... يا إلهي، إن رأسي يكاد ينفجر من هذه المشكلات التي لا تنتهي...».

وما هي إلا بضع دقائق، حتى دخل عليه المدير الفرعي للورشة، ولم يلقِ السلام، بل استعجله غاضباً:

«يبدو أنه يعجبك الجلوس خلف المكتب بدل الخروج إلى العمال والوقوف على احتياجاتهم، ألا تعلم أن الورشة متوقفة هذا الصباح بسبب تهاونك في تزويدها بمواد البناء اللازمة؟!...».

«لقد انتهيت الآن فقط من إعداد هذا الملف للمدير العام، وسأذهب حالاً لإحضار المواد...».

نظر إليه المدير الفرعي نظرة مأكرة، وقال:

«من مصلحتك أن تكون سريعاً في تنفيذ الأوامر؛ لأرضى عنك، وإلا ما أسهل استبدال آخر بك... هل فهمت؟!».

دوى الباب وراءه حين خرج، وجلس سعيد على كرسيه ونبضات قلبه تكاد تتوقف لفرط غضبه، وما هي سوى لحظات حتى خرج ليقوم بالأعمال التي طلب منه إنجازها، ناقماً على اليوم الذي أصبح فيه عبداً لهذا العمل ورؤسائه.

في المساء عاد سعيد إلى بيته قلقاً مضطرباً، لا يستطيع الحركة؛ لفرط الإعياء، وبعد أن قدمت له زوجته فتجاناً من القهوة بادرت به بالسؤال، قائلة:

«لقد نفذ زاد البيت ولم يبقَ شيء، فهلا ذهبت إلى السوق وأحضرت هذه اللوازم؟».

سلمته ورقة فيها قائمة طويلة، أخذها وقرأها بصوت مرتفع:

«دقيق، زيت، سكر، قهوة... إلخ».

وتمتم بشفتين ترتجفان:

«من أين أحضر كل هذه الأشياء، ولم يبقَ في جيبتي دينار واحد؟!...».

قالت زوجته مطرقة:

«لا سبيل لنا سوى الاستدانة كما نفعل آخر كل شهر».

فرد الزوج مكفهر الوجه:

«لا يأتي مرتب الشهر، حتى ندفع نصفه للديون، والنصف الآخر يذهب للأطباء وثنماً للأدوية ولباس الأطفال وإيجار البيت وفواتير

الماء والكهرباء، ثم لا يبقى في الجيب بعد أيام غير دنانير قليلة يضطرننا نفاذها للاستدانة مرة أخرى.. وهكذا دواليك...».

وأخفى وجهه بين راحتيه، وهو يزجر كأسد حبيس:

«ما هذه الدوامة التي ابتلعتني... كيف أخرج من ظلمتها الحالكة؟...»

متى أرى النور؟...».

اقتربت منه زوجته تلاطفه، وقد راعها تغير وجهه، ثم قالت:

«لسنا وحدنا من يعاني، إنما هي مشكلة أغلب الموظفين ذوي

الدخل المحدود، وما عسى أن يفعله راتب موظف بسيط في زمن

الغلاء الفاحش؟... أبعد الهموم عنك، ولا تجعلها تستولي عليك فتتغص

حياتك، يكفي ما تلاقيه من المشكلات في العمل...».

وأقبل عليه أطفاله الثلاثة، فأخذ يلعب معهم، ونظر إلى طفله

الرضيع ينزوي إليه بعينين بريئتين، فذهب إليه يقبله ويداعبه، فانزاح

عن صدره كل هم.

لم يتعد سعيد العشرين من عمره إلا قليلا حين تم تعيينه في

المؤسسة أمينا للمخازن، يسهر على رقابة ما يدخل وما يخرج منها،

ومع توالي السنين أصبح من حيث لا يدري يكلف بمهام كثيرة، ويعهد

إليه السفر لأماكن بعيدة لجلب السلع ومواد البناء، كما أنه المسؤول

الأول عن العمال، حيث يسهر على احترامهم لمواقيت العمل، ويوفر

لهم ما يحتاجونه، ويطوف على مختلف مشروعات المؤسسة؛ ليقف عند

حاجات كل مشروع، ووضعت تحت مسؤوليته المفاتيح المهمة للمكاتب

التي لا يتوقف الطالب عليها ليلاً أو نهاراً... كان سعيد يقوم بكل هذه الأعمال في صمت ظاهر مخفياً داخله بركاناً خامداً من الغضب يوشك أن يثور وينفجر.

كان كثير الصمت بادي الخوف، لا يمانع أو يدافع عن حقه في ممارسة أي عمل، بل كان عاملاً بسيطاً يتفادى المشكلات ويغلق ما استطاع أبواب المواجهة مع مسؤوليه مما جعلهم يتجرؤون عليه ويحملونه أثقالاً على أكتافه، مهددين إياه في كل مرة أن يعمل كل ما وكل إليه أو يكون نصيبه الطرد، ولم يكن الدافع وراء صمت سعيد وتحمله لهذه الأعباء مصحوبة بكلمات التحريض اللاذعة سوى تفكيره المستمر في عائلته، إذ من سيعولهم إن طرد من عمله في هذا الزمن الذي أصبح العمل فيه صعب المنال، لا يحصل عليه أصحاب الشهادات العالية، فما باله ولا شهادة بين يديه تدفع عنه غضب مسؤوليه؟!...

ازدادت أعباء سعيد مع مرور الأيام، فأصبح كثير التفكير شارد الذهن، سقط شعر رأسه لكثرة همومه، وغارت عيناه وكسا وجهه طبقة نحاسية لامعة زادت من تجهمه، ونحل جسمه حتى أصبح هيكلاً عظمياً يتحرك بين الناس، وبدا - وهو لا يزال في الثلاثين - كأنه ابن الستين، لا يفرقه عنهم غير شهادة الميلاد!...

كان ذات يوم يلهث وراء العمل الكثير الذي ينتظره وفي ذهنه طلبات البيت التي لا تنتهي، وفجأة توقف وسط الطريق وبدا ذاهلاً عن حوله والتفت كمن يبحث عن شيء أضاعه، وبدل أن يسلك الطريق المؤدي لمسكنه قاده قدماء إلى مكان بعيد، حتى خرج عن العمران. ومرّ به أحد الجيران، فاقترب منه، وسأله:

«إلى أين تمضي يا سعيد؟».

فنظر إليه بعينين زائغتين وفكر شارد، وقال:

«إلى بيتي... أريد العودة إلى بيتي!!...».

فرد الجار مندهشاً:

«وهل بيتك من هنا؟... لقد خرجت من البلدة كلها!!...».

لم يجب سعيد، فأمسكه الجار من ذراعه وساقه إلى بيته، وما إن وقعت عيناه على زوجته حتى صاح فيها، قائلاً:

«من أنت؟!!...».

وسقط مغشياً عليه، فحمل على جناح السرعة إلى المستشفى، حيث بقي ممدداً ساعات عديدة، ولم يفق إلا بعد حلول الظلام.

اجتمع حوله عدد كبير من الأهل والأصدقاء حين خرج من المستشفى، ولما سئل عما حدث له؟ قال حائراً:

«لا أدري ما حلّ بي... لقد كنت عائداً إلى البيت وفجأة شعرت بألم فظيع في مؤخرة رأسي، ثم نظرت حولي فنسيت إلى أين أذهب وأي الطرق أسلك... ووجدتني أمشي على غير هدى حتى حدث ما حكاه لكم جارنا. وعندما دخلت البيت لم أعرف زوجتي وأولادي، بل لو سألني أحد: من أكون؟ لما أجبتة، لقد نسيت كل شيء!!...».

منذ ذلك اليوم وسعيد يدخل في غيبوبة طويلة ثم يستيق منها، ونقل إلى المستشفى أكثر من مرة، وأحضر له راقٍ يرقيه مرات

عديدة، لكن شيئاً من هذا لم يغير مما ألمّ به ولم يخفّف الآلام التي يشعر بها في مؤخرة رأسه.

أرسل إلى طبيب مختص في الأمراض العصبية، وبعد تحاليل طويلة وفحوصات مكثفة تبين أن مرضه ليس جسدياً ولا شيء خطير في دماغه وأن مرضه الحقيقي... القلق!!...

ذات يوم شعر بضيق شديد، فأراد الخروج؛ لأنه لم يغادر البيت منذ أيام طويلة، ولم تستطع زوجته منعه حين أوهمها أنه تماثل للشفاء، وأقنعها بضرورة الخروج لاستنشاق الهواء. كان الجو بديعاً ذلك الصباح الباكر، وقليل من البشر استيقظوا ليملؤوا الأرض بثرثرتهم ووقع أقدامهم، قادته قدماه إلى إحدى الحدائق، فجلس وسط أشجارها يستمتع بمناظرها الخلابة ويفكر في قول الطبيب:

«يجب أن تبتعد نهائياً عن كل أسباب القلق؛ لتشفى... الحل الوحيد لمرضك أن تترك عملك، وتغير مسكنك، ولا ترى شيئاً يذكرك بحياتك السابقة... لم يستطع عقلك تحمل الضغوط الكثيرة التي أجهدت نفسك بتحملها يوماً... إن ما تعانيه اليوم نوع من الانهيار العصبي، وأنت محظوظ؛ لأن دماغك لم يصب بشلل مفاجئ، فتموت على إثر ذلك مباشرة...».

ابتسم سعيد بسخرية، وهو يقول:

«أترك عملي وأغير مسكني وأبتعد عن كل ما من شأنه أن يقلقني!!... يا لها من مطالب يسيرة التحقيق!!... أترك عملي لأخرج للتسول أنا وأطفالي، وأستبدل بمسكني الفضاء الواسع، حيث أفترش الأرض وأتحف

السماء، وأبتعد عن مديري وأصحاب المحلات، وأهرب من دفع فواتير الماء والكهرباء وإيجار البيت، كما أغض الطرف عن حاجيات البيت والأولاد، وأعيش وسط هذا الزحام من المشكلات بأعصاب باردة، وأرسم على وجهي ابتسامة واسعة تعبر عن سعادتي بهذا الوجود!!».

نهض من مكانه، ورأسه مزدحم بأفكار متضاربة لا تكاد تصل به إلى قرار، ودون أن يدري وجد نفسه يركب حافلة كانت تنتظر في المحطة، وما هي إلى بضع ساعة حتى كان وسط المدينة فاغراً فاه من الدهشة!...

مضى أكثر النهار، وسعيد يجوب شوارع المدينة جيئةً وذهاباً إلى أن وصل الشارع الكبير المزدحم بالسيارات والحافلات، وأسرع الخطوات يبغي العبور إلى الجهة الأخرى حين فاجأته سيارة أقبلت نحوه بسرعة رهيبة فألقى نفسه يطير في الهواء، ثم يسقط على الأرض مغشياً عليه والدم ينزف من كل موضع من جسده النحيل.

فتح عينه بعد بضعة أيام فوجد نفسه في المستشفى محاطاً بأفراد أسرته، تهللت وجوههم حين ابتسم لهم، وقال سائلاً:

«ما الذي حدث؟... وما هذه الضمادات على جسدي؟!...».

حكى له أهله ما حدث منذ خروجه من البيت إلى أن وقع الحادث واتصال المستشفى بهم بعدما عرفوا هويته من الأوراق التي وجدوها في جيب سترته. ضحك «سعيد» ملء فيه، وقال:

«هذه مصيبة جديدة تضاف إلى سلسلة مصائبى!!...».

فقاتلت زوجته، عاتبة:

«الحمد لله أن لطف بك وإلا لما كنت الآن بيننا تنعم بالحياة».

فرد متهكماً:

«أنعم بالحياة؟!...».

اقتربت منه والدته ورفعت يده إلى فمها تقبلها، ثم قالت وهي تمسح على جبينه كطفل صغير:

«مهما تكن المصائب التي تلاقينا في دنيانا، فهي إلى زوال... سواء سعدنا أم شقينا، سكنا قصرًا أم كوخًا، أكلنا أطايب الطعام وارتدينا أفخر الثياب أم عشنا دون ذلك، فكل شيء إلى زوال... الحياة يا ولدي، فرصة لنا؛ لكي نصلح شؤوننا ونتدارك أخطاءنا، وأنت يا بني، مريض ولا سبيل لشفائك، وأسباب المرض تحكم خناقك، فاهرع إلى الله عساه يرحمك كما رحمك الآن، ونجاك من موت محتم».

ونظرت إلى أطفاله، ثم أضافت تقول بنبرة حانية:

«لا بد أن تحب الحياة لأجلهم... لمن تتركهم إذا رحلت عنهم؟».

أمعن النظر إلى وجوههم البريئة وأشفق عليهم، إذ تصورهم بين مخالب الدهر يذوقون ألوان الذل، فضمهم إليه بقوة، وتمتم يسأل زوجته:

«متى أخرج من هنا؟».

«بعد أيام قليلة».

في بيته، جلس يفكر بعد نوم الجميع، وشعر بألم رأسه يعاوده من جديد، فنهض من مكانه وتوضأ، ثم وقف بين يدي خالقه وخشع كما لم يخشع في حياته كلها، وما بدأت آيات القرآن اليسيرة تتلى على لسانه حتى أجهش بالبكاء فتبلل وجهه، وشعر بدموعه تغسل قلبه، وتحببته كما تحيي الأمطار الغزيرة الأرض الموات، ولحظات فقط غاب عن الوجود بأسره، محلّقاً في عوالم أخرى، حيث الراحة والاطمئنان.



obeikandi.com

ثمن الخطيئة

خرجتُ للسوق ذات يوم بارد مع صديقة لي، وبينما نحن سائرتان نتجانب أطراف الحديث اقتربت منا فتاة متسولة ترتدي خرقاً بالية، وتحمل في يدها اليسرى طفلاً صغيراً في أشهره الأولى، مدت إلينا يدها في استحياء دون أن تتلفظ بكلمة أو تفعل ما يفعله غيرها من المتسولين حين يلحون في السؤال عسى أن يستدروا بذلك عطف الناس، وترق قلوبهم، فينالوا بعض ما في جيوبهم، ونظرت إلى وجهها، فإذا هي تحاور إخفاءه خلف خمار كبير يغطي كامل رأسها، ولم ألمح غير عينيّن متألمتين سارعت بخفضهما حين وضعت بعض الدنانير في يدها، وضمت طفلها إلى صدرها، وتسلفت بين جموع الناس تواصل عملها.

لا أدري أي شعور انتابني تجاه هذه الفتاة، فقد كانت في مطلع الشباب وبدت لي جميلة ومهذبة برغم الملابس المتسخة التي تستر بها جسدها الواهن، وشعرت في داخلي أن هذه الفتاة ليست متسولة، وأن ظروفًا قاهرة دفعت بها إلى هذا المآل المحزن.

التفت إلى صديقتي أبغى البوح لها بما يجول في خاطري، فوجدتها تتبع تلك الفتاة بنظرات فاحصة، وقد تغير لون وجهها، وانتابها ذهول صمّ أذنيها عن سماعي، فتوقفت وضغطت على يدها بقوة، قائلة لها:

«ما بك نعيمة؟... أراك تلاحقين تلك المتسولة ببصرك ولا تدرين ما يدور حولك؟...».

فنظرت إلي نظرات ساهمة، وهي تقول كأنها تحدث نفسها:

«إنها سعاد... أنا متأكدة أنها سعاد».

«سعاد!!... هل تقصدين الفتاة المتسولة؟».

«نعم... إنها هي، أنا أعرفها جيداً، ولا يمكن أن أتوه عنها حتى لو أخفت وجهها... يا إلهي، من يصدق أنها أصبحت متسولة تجوب الشوارع في هذه الحالة المزرية».

«هل تعرفينها حق المعرفة؟».

«هي جارتنا عندما كنا نسكن المدينة التي غادرناها منذ أشهر؛ لنقيم هنا، لكن علاقتي بها كانت سطحية، إلا أن أهل الحي بدؤوا يتناقلون أخبارها بالتفصيل، وكأنهم كانوا شهوداً على ما حدث لها».

«وماذا حدث لها؟»... سألت والفضول يملكني لسماع حكايتها.

عند العودة جلست مع نعيمة في الغرفة، وبدأت تسرد قصة جارتها منذ بدايتها:

«اسمها سعاد، في الثانية والعشرين من عمرها، نشأت وسط أسرة صغيرة ميسورة الحال، كانت تعيش في فيلا صغيرة قرب بيتنا مع أمها وأخيها، وكانت قرة عين أمها وتحظى بمكانة عزيزة في قلب أخيها؛ لأنها الصغرى، وقد نشأت مدللة لا يرفض لها طلب ومحاطة بكل الحب

والحنان، فلا عجب أن كبرت مرهفة المشاعر، رقيقة النفس حاملة
الضؤاد، وتغلب عليها طيبة وأدب عاليان زاداً من جمال روحها على ما
تتميز به من جمال فطري هادئ.

إن صورتها الآن بين عيني عندما ألتقيها خارجة من بيتها بقوامها
الرشيق وأناقتها الرفيعة، وإني لأمعن النظر في وجهها؛ إعجاباً بجمالها
فأرى عينيها السوداوين الكبيرتين تنبعث منهما فرحة كبيرة بالحياة
وشعرها الأسود الغزير يتدلى على كتفها يتوج جمالها الساحر، تقول
بصوت خفيض: «صباح الخير».

وأرد تحيتها الصباحية، يملؤني الإعجاب بلطفها وأدبها، فهي
متواضعة جداً ولم تسئ لأحد قط، بل أجدها ساذجة وربما كانت
ساذجتها وراء ما حدث لها.

فتح أخوها الطبيب عيادة خاصة في حينها، أما هي فلم تتجح
في دراستها، فتوجهت إلى التكوين المهني؛ لتتوج دراستها بعد ثلاث
سنوات بدبلوم سمح لها الحصول على عمل في أحد بنوك المدينة، وفي
عالم العمل الرحب تفتح عقلها على آفاق جديدة لم تعرف لها وجوداً
من قبل، وأهم شيء تفتحت عليه، علاقتها بالجنس الآخر.

كانت جالسة في مكتبها ذات صباح بعد بضعة أسابيع من تعيينها،
حين دخل شاب وسيم وحياها تحية ناعمة، وهو يقول:

«أعتذر على هذه الزيارة المفاجئة، لكنني أريد التحدث إليك، هل
هذا ممكن؟».

فقالت مبتسمة:

«بالطبع، تفضل بالجلوس».

واتخذ له مجلساً على مقعد كان أمامه، وبعد تردد قال:

«اسمحي لي أن أدخل في الموضوع مباشرة... في الحقيقة أنا... أنا معجب بك كثيراً، فمَنْذ رأيتك أول مرة هنا شعرت بشيء قوي يجذبني إليك، ولم أستطع منع نفسي من التفكير فيك وبودي التعرف عليك أكثر، فماذا تقولين؟».

ارتبكت الفتاة وتوردت وجنتاها خجلاً، فهذه المرة الأولى التي يفضي إليها شاب بمثل هذا الحديث، وتلعثم لسانها، وهي تقول:

«إننا في مكان عمل، ولا يجوز أن نتحدث في مثل هذه الموضوعات، أرجوك أن تتصرف».

«ولكن... أين تريدني أن أتحدث إليك... في الشارع؟!...».

فقالت معترضة:

«بالطبع لا...».

«وأين إذًا؟!... لا يمكن أن نلتقي في مكان آخر غير هذا، على الأقل في الوقت الحالي».

«ولكن...».

«لكن ماذا؟... هل أنت خائفة؟».

«إنني أعرض عليك صداقتي، هل تقبلينها؟».

لكنني لا أعرفك».

فقال الفتى، وهو يعتدل في جلسته:

«أعرفك بنفسي: اسمي - جمال - أعمل بهذا البنك منذ سنوات، في الثلاثين من عمري، لست متزوجاً، لكنني قد أفعل قريباً... لدي مسكن خاص ومجهز لا تنقصه سوى امرأة جميلة مثلك تحمل الدفء إلى غرفه الباردة، وتعمر جنباته الفارغة».

وصمت وهو ينظر إلى عينيها نظرات جريئة، فخفضت سعاد بصرها، وتشاغلته بحمل الأوراق بين يديها ووقفت تتظاهر بالرغبة في الانصراف، وقالت:

«أرجوك، لدي عمل كثير، وقد أخرتني ما فيه الكفاية».

فقال، واقفاً بوقوفها:

«أتعدينني بلقاء آخر؟».

فردت دون أن تنظر إليه:

«لن أعدك بشيء».

فغادر مبتسماً، وهو يقول:

«إذا أنا من يعدك بزيارة أخرى!!...».

وأسرع بالخروج؛ حتى لا يعطي لها فرصة الرد، رمت سعادة جسدها المرتعش على الكرسي، وشعرت بقلبها ينبض نبضات سريعة

متلاحقة، ومكثت كذلك وقتاً غير قليل حتى دخلت إحدى زميلاتهما فشغلتهما بأحاديث شتى أنستها ما كان لها مع ذلك الشاب الجريء.

عندما اختلت سعاد بنفسها مثل أمام عينها جمال، وبرغم أنها كرهت منه جرأته إلا أنها أعجبت بوسامته وشخصيته، فقد بدا لها قوياً، واثق النفس، وتساءلت في أعماقها:

«أحقاً يحبني؟... هذا ما قاله لي... لا، هو لم يقل: إنه يحبني، بل أبدى فقط إعجابه بي... أليس الإعجاب بوابة الحب؟...».

لم تحدث سعاد أمها بما حدث لها برغم أنها كانت في سابق عهدها تخبرها بكل أمر، وانطوت على نفسها في غرفتها تعاود التفكير فيه، وقضت ليلة مضطربة لا تغفو حتى تصحو على صدى كلماته الجميلة.

في مساء اليوم المقبل لم يتردد في دخول مكتبها والجلوس إليها، وبعد صمت لحظات قال، محاولاً الوصول إلى قلبها بالدخول عبر عينيها الجميلتين:

«أرجو ألا أكون قد أزعجتك».

فصمتت ولم تتبس بكلمة، فقال وقد رسم على وجهه حزن العاشقين:

«لم أستطع النوم ليلة البارحة...».

فرفعت إليه عينيها ذابلتين، فواصل يقول:

«صورتك لا تفارق خيالي أبداً، عيناك الجميلتان وابتسامتك

الساحرة التي تبخلين بها علي... كل شيء فيك يجذبني إليك، وسعادتي هي أن أكون دومًا بقربك».

واكتفت بالنظر إليه وكأنها تتحرى صدقه، وفي داخلها مشاعر تتضارب كأمواج البحر الصاخبة، وفجأة أمسك يدها وضغط عليها، وهو يقول متذللًا:

«سعاد... إنني أحبك، فهل تقبلين حبي؟».

وجذبت يدها وقد فاجأها تصرفه، وشعرت كأن مسأً أصابها فهز جسدها هزاً عنيفاً، ونطقت أخيراً ودمعتان تتلألأان في مقلتيها:

«أرجوك جمال، أن تفهمني، إنها المرة الأولى التي يحدثني فيها شاب مثل هذا الحديث، وقد فاجأتني، ولم تترك لي فرصة التفكير في كل ما يحدث لي».

وشعر بالنصر، إذ دفعها للكلام أخيراً وجعلها تنطق اسمه دون شعور منها، وقال يغازلها بعينه، ويمطرها بكلماته العذبة:

«يسعدني أن أكون أول رجل في حياتك، وأرجو أن تعذريني لمفاجأتي إياك بمثل هذه التصرفات، لكن صدقيني عاطفتي ملكت علي نفسي ودفعنتني للحديث إليك دون مقدمات، وربما بجرأة لم تعهدها، وكل ما أتمناه أن تقدرني الحب الذي أحمله لك في قلبي، وتمنحيني سعادة القرب منك والتعبير عن حبي لشخصك».

ولم تدر الفتاة ما تقوله، فهو يكلمها بحرارة أشعرتها بصدقته، فما الذي يجبره على الحديث إليها بالذات، والفتيات حوله كثيرات، ولن يقابل بالرفض من أي منهن!!؟؟».

والتقت نظراتهما ولم تخفض بصرها هذه المرة، وكأنها تريد أن تكشف خبايا نفسه، وسعد جمال بهذا التقدم الملحوظ في مدة وجيزة وهمّ بالكلام حين بادرت، قائلة:

«بالأمس عرضت عليّ صداقتك وأنا أقبلها... فلنكن صديقين فقط، ولنترك أي شيء آخر للوقت، ولا نتسرع».

وافق جمال على رأيها، فهو يمسك بأول الخيط وسيصل نهايته حتمًا. وبحكم الصداقة التي اتفقا عليها أخذ الشاب يتردد على مكتبها بين الحين والآخر يحدثها عن نفسه وتحدثه عن نفسها في جلسات طويلة، وألفت الفتاة وجوده في حياتها، فأصبحت تنتظر قدومه كل يوم، فإذا تأخر عن زيارتها ذهبت إليه تقاسمه جلسات في مكتبه، وسرعان ما تمكن من قلبها البكر الذي جعل منه فارس أحلامها.

تطورت صداقتهما بسرعة كبيرة لتتحول إلى حب صريح بينهما، ولم يمض وقت طويل حتى بدأت سعاد تعبّر عن عاطفتها تجاهه، وتظهر له سعادتها بحبه، وشغفها بلقائه.

أقبل عليها ذات صباح حاملاً باقة ورد جميلة، قائلاً:

«ما رأيك لو نتناول الغداء معًا اليوم؟».

قبل أن ترد على طلبه المفاجئ، قال شارحًا:

«أعرف أنك تتناولين غداءك هنا مع بعض زميلاتك؛ لبعد بيتك عن هذا المكان، وساعة واحدة لا تكفي لذهابك وعودتك، لذلك أتمنى أن تقبلي دعوتي على الغداء اليوم... ماذا قلت؟».

نظرت الفتاة في عينيه، وبرغم أنها ترفض فكرة الخروج معه إلا أن لسانها لم ينطق بكلمة رفض أو اعتذار، فاستغل صمتها وبادر بالخروج، قائلاً:

«رائع... سأمرّ عليك عند منتصف النهار... لا تنسي موعدنا...».

خرجت سعاد مع جمال لأول مرة، وركبت سيارته الفاخرة، وفي مطعم جميل يطل على البحر تناولوا غداءهما وهولا يتوقف عن الحديث، في حين بدت صامته، وعلى وجهها ارتسمت علامات الحيرة والقلق، انتبه إليها وقال يضم يدها الصغيرة بين راحتيه:

«ما بك سعاد؟... أنا دمة على خروجنا معاً؟».

فقال تغالب الدموع في عينيهما:

«إنها أول مرة في حياتي أقوم بشيء دون علم أمي... منذ عرفتك وأنا أخفي عنها أموراً كثيرة برغم أسئلتها وشكوكها... أنا فعلاً تغيرت وإلا لما استطعت الجلوس معك في هذا المكان... ماذا لوراني أخي معك؟!...».

فقال جمال يطمئنهما:

- «لا تخشي شيئاً، لورانا سأخبره بالحقيقة».

- «أي حقيقة؟!...». قالتها مذعورة.

- «متحابان، وسأقدم لخطبتك قريباً».

- «ومتى ذلك يا جمال؟».

- «قريباً... قريباً جداً حبيبتي...».

وما زال يحادثها حتى زالت مخاوفها، واطمأنت نفسها، فأقبلت على الطعام تأكل بنهم ضاحكة مرحة، وأحلام الزواج السعيد تداعب خيالها. وتكرر خروجهما معاً، من المطعم إلى قاعات الشاي، إلى الحدائق الغناء ينعمان بدفء الحياة وجمال الطبيعة، وينظران إلى الدنيا بأعين العاشقين السعداء.

أقتعها ذات يوم ألا يمكثا في المكتب إلا قليلاً، ثم يغادراه لقضاء يوم كامل في التجوال، ويعيدها قبل انتهاء مواعيد العمل. قال، وهو يضمها إلى صدره:

«أريد أن أقضي معك يوماً كاملاً لا يعكر صفو حياتنا شيء في الدنيا يا ملكة قلبي، وحبوبة عمري».

كيف لها أن تقاوم إغراءه، وهي تشعر بضعف شديد تجاهه، وكأنها طفلة صغيرة أمام معلم كبير ليس لها إلا أن تنصاع لأوامره وتتفد مطالبه؟!...

خرجا في الصباح، وبعد أن أعياهما التجوال عرجا على أحد المطاعم الفاخرة، فتناولا غداءهما، ولأن مساء الأيام الصيفية كان طويلاً والجو حاراً فقد شوقها لرؤية مسكنه الذي سيصبح مسكنها قريباً، وعرض عليها أن يقضيا فيه أمسية حالمة، لا يشاركهما فيها أحد.

توقفت السيارة أمام عمارة حديثة، ونزلا يتأبط ذراعها كأنه يخشى أن تفلت منه، وقالت حين فتح باب شقته:

«أعتقد أنه من الضروري زيارة بيتك الآن، ولا أحد فيه؟».

فقال، وهو يدفع الباب، ويجرها إلى الداخل، والابتسامة لا تفارق شفثيه:

«بالطبع يا حبيبتي، ألن يكون بيتك بعد أشهر قليلة؟ لا بد أن تريه، فربما كان لك رأي آخر في أثاثه وديكوره... إن ذوق الرجل ليس كذوق المرأة أبداً».

وأمسك يدها وطاف بها يريها المطبخ وغرفة الاستقبال وغرفة الأطفال، وما أشد دهشتها حين فتح باب غرفة النوم، لقد كانت جميلة ومجهزة بأحدث الأثاث، اقترب منها، وهمس في أذنيها:

«هذه غرفة نومنا... ما رأيك فيها؟».

قبل نهاية مواقيت عمل المساء كانت سيارة جمال متوقفة أمام مبنى البنك وداخلها كانت تجلس سعاد، وعيناها مبللتان بالدموع، قال وهو يضغط على يدها:

«لم البكاء يا سعاد؟... إننا سنتزوج قريباً، أعدك بذلك».

نظرت إليه نظرات دامعة، ثم نزلت مسرعة، كأنها تهرب من شبح يلاحقها، لم تستطع النوم ليلتها، ولم تفتح الباب لوالدتها، وصرخت من غرفتها:

«أرجوك يا أمي، اتركني بمفردتي، إنني مريضة، وأريد النوم الآن».

تظاهرت بالمرض خلال أسبوع كامل لم تذهب فيه لعملها، ومع بداية الأسبوع الثاني غادرت المنزل متوجهة إلى البنك، وانتظرت مجيئه أغلب اليوم، فلم يأت فتوجهت إلى مكتبه تسأل عنه، فإذا هو في إجازة تستغرق شهراً، ولم تدر كيف تتصل به، فهي لا تعرف هاتف منزله ولا مسكنه مع عائلته، أما مسكنه الخاص فلا يذهب إليه إلا قليلاً. ولم تجد أمامها سوى الصبر حتى تنقضي مدة الإجازة.

بعد شهر، جاءها مرحاً كعادته، وما إن دخل مكتبها حتى أغلق الباب، وضمها بين ذراعيه، وقال لها:

«سامحيني حبيبتي، لقد اضطررت لأخذ الإجازة قبل عودتك، وسألت عنك قبل ذلك، وقيل لي: إنك مريضة فهل أنت بخير؟».

فدفعته عنها، وقالت ترمقه بنظرات غاضبة:

«لو كنت فعلاً تحبني لزررتني في البيت؛ لتطمئن على صحتي، وتتعرف على أخي، ثم تستغل فرصة تعارفكما لطلب يدي منه، وأنا على يقين بأنه لن يرفضك؛ لأنني أحبك».

فقال مندهشاً:

«أأخطبك وأنت مريضة؟... ثم كان لا بد لي من السفر خلال هذا الشهر لذلك لم أستطع زيارتك».

«ومتى ستقدم لخطبتي؟ لقد وعدتني بالزواج قريباً».

فقال متظاهراً بالأسف الشديد:

«سنتزوج ما في ذلك شك، لكن أُمي بالمستشفى هذه الأيام لإجراء عملية خطيرة، فأمهليني حتى تشفى وتعود إلى البيت، ثم أفتحها في الموضوع».

وصدقت الفتاة زعمه، وأسفت لحال أمه، وعرضت عليه أن تزورها، لكنه أخبرها بأنها تعالج في مستشفى مدينة أخرى تتوافر فيها وسائل علاج حديثة. واستطاع مرة أخرى بكلامه المعسول وحججه المحبكة بإتقان أن يطمئنهما ويعيد إليها ثقتهما به.

عرض عارض ذات يوم أجبرها على زيارة طبيب، وفزعت حين هناها بحملها معتقداً أنها سيدة، وعادت إلى بيتها، شاردة الذهن، وقد اسودت الدنيا في عينيها، وهي ترى كل حياتها على حافة الهلاك.

التقته صباح اليوم المقبل كعادتها، وحملت إليه النبأ؛ ليستعجل إجراءات الزواج، فصدمة المفاجأة صدمة لم يتوقعها، وثار في وجهها يوبخها: لأنها لم تحتط للأمر، وألقى اللوم عليها، وبقيت هي تنظر إليه مشدوهة، لا تعي ما يصدر منه، ثم هدأت ثورة غضبه، فجلس يسترجع أنفاسه ويمسح العرق المتصبب على جبينه، ثم قال:

«سنلجأ إلى مختص لإجهاضك».

فصرخت في وجهه كالصاعقة:

«الإجهاض؟!!... إنه ابنك وابني، ولن نصحح خطأنا بخطأ آخر
أفزع منه».

فقال متظاهراً بالهدوء:

«قلت لك: لا أستطيع الزواج الآن... لا أستطيع».

«لماذا؟... ليس لهذه المشكلة غير حل واحد، الزواج وفي أسرع
وقت، أتريد أن تحطمني؟...».

وارتفعت أصواتهما داخل المكتب، وخرج حين وصل النقاش بينهما
إلى طريق مسدود، بعد أن خيراها بين أمرين لا ثالث لهما: الإجهاض أو
تحمل مسؤوليتها وحدها.

غاب العاشق المزعوم عن العمل ولم تعثر له على أثر فاستقلت
سيارة أجرة أوصلتها لمسكنه الخاص. وبخطوات متناقلة صعدت إلى
المسكن الذي سلبها هناءة عيشها، ودقت الباب فخرجت إليها امرأة
في مقتبل العمر، سألتها مرادها؟ فقالت سعاد خجلة:

«هل هذا منزل جمال؟».

«نعم... أنا زوجته، هل من خدمة؟».

صعقت سعاد حين سمعت كلامها، ورأت طفلاً في الثالثة متعلقاً
بطرف ثوب أمه، وانتهى إلى سمعها صراخ طفل آخر... بحثت عن كذبة
تبرر بها مجيئها، لكن عقلها خذلها، ولم تجد ما تقوله، فقالت الزوجة
وقد ارتابت لأمرها:

«من أنت؟ ... وماذا تريد من زوجي؟!...».

فقالت سعاد بكلمات متقطعة:

«في الحقيقة... أنا... أنا زميلته في العمل، وجئت أسأل عن ملف مهم كان بحوزته قبل أن يغادر... هل لي أن أعرف أين هو الآن؟».

«لقد سافر إلى الخارج، ولن يتمكن من العودة قبل نهاية العام... إن اتصل هاتفيًا فسأله عن الملف».

قبل أن تنصرف، فكرت سعاد أن تخبرها بكل شيء، لكنها أحجمت عن ذلك، وقالت تحدث نفسها:

«ما ذنبها هي أن أحطم بيتها وأشتت أطفالها... يكفي أن حياتي ضاعت أفضيع بيدي حياة هؤلاء الأبرياء أيضًا؟!... لقد نلت جزائي حين رضيت بإقامة علاقة مع رجل غريب خفية عن أهلي... إنه خطئي، ولا بد أن أنال عقابي».

قضت سعاد يومها هائمة في الطرقات تذرف دموع الحسرة والندم. فقط أدركت أنه ذئب خطط بذكاء لينال من فريسته، وعندما حقق بغيته اختفى دون أن يعبأ بالمصير الذي ينتظرها. ما أسهلها من فريسة وسط هذه الغابة الموحشة بين مطامع الرجال الحيوانية.

«الجبان الحقير... ليتني لم أستمع لكلامه، ولم أصدق وعوده... لقد آمنت بحب قضى على أحلامي، وحطم آمالي، ورماني في هوة سحيقة لا قرار لها... لم يعد لي حق في الحياة بعدما أتيت، ليس لأمثالي من جزاء غير الموت».

أذكر الحزن الذي خيم على بيتها تلك الأيام، سمعت الناس يتحدثون عن الرسالة التي تركتها قبل أن ترحل. كتبت إلى والدتها وأخيها رسالة قصيرة لم تقل فيها غير كلمات قليلة:

«أمي الحبية... أخي العزيز...

لم أعد سعاد التي عرفتماها... لقد أتيت ذنباً لا يستحق فاعله إلا الموت. أسفة على العذاب الذي سأسببه لكما، وآسفة لأنني خنت ثقتكما بي وقابلت تربيتهما الفاضلة بمثل هذه الخطيئة. أفضل أن تبكيام لموتي على أن تتعذبا لذنبي. لا أدري إن كنت أستحق عفوكما وصفحكما.

المحبة لكما دوماً: «سعاد»

بحث عنها أهلها في كل مكان دون أن يعثروا لها على أثر، واعتقد الجميع أنها انتحرت بطريقة ما. واليوم فقط عرفت أنها لم تنتحر، لكنها هربت إلى هذه المدينة البعيدة تعيش وابنها على التسول... إنها تدفع ثمن خطئها.

لم تبلغ صاحبتني هذا المبلغ من القصة، حتى ضاقت نفسي وشعرت بالعبرات تهبط على خدي، وقلت لمحدثتي بأسف شديد:

«لا أحد يأمن على نفسه من غدر الناس وتقلباتهم، وإذا لم نتمسك بحبل الله، فلا شيء يحمينا من أنفسنا وممن هم حولنا».

وسرحت بذهني أعيد التفكير في أمر تلك الفتاة البائسة، وسألت نعيمة، وهي تضع أمامي فنجاناً من القهوة:

«هل تعتقدين أن أهلها قد نسوها؟».

«بالطبع لا، فأمرها تحبها حباً عظيماً، وربما أودى بها حزنها عليها».

«ربما لا تزل تبكيها حتى الآن، وتتمنى فقط لو تعلم مصيرها».

«محتمل جداً».

واحتسيت قهوتي، ثم قلت معقبة على حديثي:

«ألا تفكرين في طريقة نساعد بها؟... لقد آلمني حالها كثيراً قبل أن تروي لي قصتها، والآن أرى أنه من الضروري مساعدتها وقد نالت جزاء ما اقترفته من ذنب... ألم تنتهي لجسدها النحيل، كيف يرتعش من البرد وطفلها بين ذراعيها يكاد يهلك برداً؟».

فقلت نعيمة، والألم يعتصر قلبها:

«يؤلمني مآلها كثيراً، وما ارتكبته من إثم لم يكن برغبتها، بل لأنها ساذجة وخرجت إلى الحياة دون أن تتسلح بالذكاء والفتنة، حتى لا تنخدع هكذا بسهولة ومع أول رجل يحادثها، وما يؤكد رأيي أنها لم تتجه - بعد إثمها - للمتاجرة بجسدها والانضمام إلى بائعات الهوى، وما أكثرهن في المدن الكبيرة».

لقد اختارت التسول وخبأت جسدها وجمالها خلف تلك الثياب الرثة، ولم تتبع ذلك السبيل الدنيء».

وخطرت ببالي فكرة، فقلت:

«ما رأيك لو نتصل بأخيها ونخبره بالحقيقة ونرى ما يكون رد فعله، فإن هشّ للأمر أعلمناه بمكانها، وإلا ننكر الأمر ونبحث عن طريقة أخرى لمساعدتها».

قفزت صديقتي فرحاً، وقالت:

«هذا ما سنفعله فوراً...».

بحثنا عن رقم هاتف الطبيب في الدليل ولم نجده إلا بعد جهد جهيد، وتحدثت إليه نعيمة دون أن تذكر هويتها، وما إن ذكرت أخته حتى اضطرب صوته واختتقت كلماته، وشعرت به يكاد يطير فرحاً حين أخبرته أنها لا تزال على قيد الحياة. توسل إليها أن تدله على مكانها؛ لأن والدته تلازم فراش المرض منذ رحيل سعاد المفاجئ، وهي لا تريد شيئاً في الدنيا سوى أن تراها قبل أن تموت.

واتفقنا معه على زمن اللقاء ومكانه، بعدما أيقنا أن الفتاة ستحظى برعاية أخيها ووالدتها.

رافقتها ذلك اليوم، لم تنتظر طويلاً، إذ أتى شقيق سعادة مهرولاً يتفحص الوجوه؛ بحثاً عنا، توجهنا إليه وجلسنا ننتظر قدومها في المكان الذي تتسول فيه، لكنها لم تظهر ذلك اليوم والأيام التي أعقبتها، حتى تملكنا اليأس. وبينما نحن جلوس ذات يوم نتفحص أوجه المتسولين كعادتنا، إذ ظهرت من بعيد تجر قدميها بصعوبة، وعيناها معلقتان بالأرض لا ترفعهما أبداً. كانت تبدو مريضة، واهنة القوى، تمد يدها في ذل وخنوع. لم يستطع شقيقها منع دموعه حين وقعت عينه على

أخته الحبيبة في هيئتها تلك. انتظر حتى اقتربت منه، وعندما مدت يدها نحوه أمسكها بحنو كبير وخبأها بين راحتيه... لم تستطع الفتاة لفرط ضعفها أن تسحبها منه، بل رفعت بصرها إليه، فإذا بعينيها تلتقي بعينه، صعقتها المفاجأة، وأرادت أن تهرب منه لكنه أمسك ذراعها ثم ضمها إليه، وهو يقول منتحبا:

«لا تخافي شيئا يا سعاد، إنني أخوك ابن أمك وأبيك، أفتهربين مني، وأنا أولى بحمايتك؟».

أخفت رأسها بين ذراعيه وتعلقت به تعلق الميت بأذيال الحياة، وصرخت:

«سامحني يا أخي... سامحني... سامحني...».

«لقد سامحتك، وسامحتك أمي... هيا لنعد إلى البيت، فأمنا لم تتوقف عن مناداتك وترقب عودتك كأنها كانت توقن بحياتك».

وهمَّ بالمغادرة حين تذمر شيئاً، فقال لها:

«وطفلك؟!...».

فازدادت التصاقاً به وشهقت شهقة حزينة، وهي تقول:

«لقد مات منذ أسبوعين... مات برداً وجوعاً ولم أستطع إنقاذه...».

أوماً إلينا الشقيق برأسه يشكرنا على صنيعنا، ومضى يضم أخته إليه، وهي ترتعش بين يديه، أجلسها قربها في سيارته، وقد أضحت حطاماً لامرأة سلبها رجل واحد كل معاني الحياة.

obeikandi.com

الأحلام الموهودة

أسرعتُ لاستقباله في المطار، بعد غياب خمسة عشر عامًا قضاها في إنجلترا دارسًا وباحثًا وعاملاً في أشهر الشركات البريطانية المتخصصة في الفيزياء النووية، لم يكن وحده، بل كان برفقة زوجته وطفليه:

«أهلاً بك في وطنك يا دكتور فؤاد، ابن الشيخ عبد الرحمن».

قلتها، وأنا أضمه إلى صدري مرحباً به، فقال معاتباً:

«دكتور!!... ما هذا يا سمير؟ أتريد بكلماتك هذه أن تضع بيني وبينك جداراً من الكلفة المزيفة؟».

«إنني أمزح فقط، ولو أنني فخور بك... دكتوراه بالإنجليزية وفي الفيزياء النووية!!... إنك مفخرة لهذا الوطن، وعقلك العبقري المفكر من أندر العقول في الجزائر، بل في الوطن العربي كله».

«كفى يا سمير، رجاء، لا أحب مثل هذا المديح، فالفضل لله أن يسر لي سبل النجاح... أقدم لك زوجتي «جنيفر»... أقصد فاطمة الزهراء، فقد أسلمت عن قناعة وإيمان وأسمت نفسها «فاطمة الزهراء».

«متشرف جداً بمعرفتك سيدتي».

«أهلاً بك».

«وهؤلاء أطفالى: محمد ثماني سنوات، وهدى ست سنوات... هيا سلما على عمكما سمير.. صديقي في كل مراحل العمر الطويلة».

أقبل الطفلان نحوي، فقبلتهما وأنا معجب بعائلة صديقي فؤاد، فزوجته ترتدي الحجاب الإسلامي الذي يخفي ملامحها الإنجليزية، وطفلاه يبدوان مهذبين جداً.

«إلى أين نذهب الآن؟...». سألني فؤاد.

«إلى فندق «الأوراسي» أشهر الفنادق في العاصمة، لقد خصص لكم فيه جناح فاخر بكل مستلزماته لإقامتكم المؤقتة، بعدها ستنقلون إلى مكان آخر يليق بمقامك أيها الدكتور العبقرى».

أقام صديقي في الفندق برفقة عائلته، وبقيت أياماً أتردد عليه، نخرج للتجوال معاً في المدينة الكبيرة، نتحدث عما تغير في البلاد والعباد منذ رحيله.

وأخيراً استلم عمله الجديد في إحدى الشركات الوطنية، ومحاضراً أيضاً للطلبة بالجامعة المركزية، فقلت لقاءتنا، ولم أسف لذلك، لقد أعجبني حماسه الشديد لنقل علمه الغزير في هذا التخصص الخطير إلى وطنه وقومه... لقد اختار العودة بنفسه؛ ليسهم في بناء وطنه رغم الإغراءات الكثيرة التي عرضت عليه للبقاء هناك.

قال لي ذات يوم، ونحن نجلس في مقهى شعبي يقع في قلب العاصمة:

«عرضوا علي أعلى المناصب في أشهر الشركات البريطانية، وحتى خارج بريطانيا، وتركوا لي حرية اختيار المكان الذي أود الإقامة فيه، والمنزل الذي أفضله للسكن، ووضعوا تحت تصرفي سيارة وسائقًا دائمين... كل طلباتي مجابة، المهم أن أبقى في شركاتهم؛ ليستفيدوا من علمي وخبرتي. لكنني لم أستطع البقاء... وطني فوق كل شيء...».

مرت أشهر عديدة لم ألتقه فيها إلا مرات قليلة، لقد شغلتني أعماله عنه، وشغلته أعماله عني، وذات يوم رن جرس هاتفي، فإذا به يطلبني قائلاً:

«سمير، يجب أن نلتقي الآن إن لم يكن لديك ما يشغلك، فأنا بحاجة إليك».

«أين تريد أن نلتقي؟».

«في أي مكان تختاره».

«حسنًا، سأمر عليك الآن بسيارتي ونخرج سوياً، انتظرني...».

جلسنا في مكان هادئ يطل على البحر، وأول ما رأيته فزعت لأمره، إنه ليس فؤاداً الذي استقبلته منذ أشهر في المطار، كان يبدو ضعيفاً، واهن القوى وسحابة سوداء أخفت صفاء وجهه وبريقه الوضيء الذي رأيته عليه أول مرة... نظرت في عينيه، فإذا بي أقرأ فيهما قلقاً واضطراباً، سألته وقد هالني أمره:

«ما بك يا فؤاد؟... أراك على غير ما عهدتك عليه؟...».

فأجاب دون مقدمات:

«هل تصدق يا سمير، أننا لا نزال نقيم في ذلك الفندق، وقد مرت خمسة أشهر على وصولنا؟!».

«ولماذا لم تنقلوا حتى الآن إلى مسكنكم؟...».

«لا أدري!!... حقيقة لم أعد أفهم شيئاً».

«أرجوك يا فؤاد، اهدأ، وحدثني بتفصيل كل شيء».

«منذ وصولي - وفي كل يوم - لا أسمع إلا وعوداً لا تتحقق ومواعيد لا يحترم مواعيدها، وأشياء كثيرة متناقضة لا أكاد أجد لها تفسيراً منطقياً، لكن الشيء الوحيد الذي أدركه حقاً هو أن كل الأبواب موصدة في وجهي وكأنهم لا يريدون لي أن أعمل!!».

«من تقصد؟!».

«الجميع... كل من عرفت وقابلت وحدثت، السكن لم أحظ به حتى الآن برغم الوعود الكثيرة... تصور باحثاً مثلي يعود إلى وطنه، فلا يأبه به أحد ولا يجد أين يقيم؟!!! جعلونا نقيم في فندق كالغرباء...».

أطرق يفكر، وابتسامة ساخرة على وجهه، ثم قال:

«حتى سائق السيارة التي وضعت تحت تصرفي للتنقل بين المصنع والجامعة لا أجده أبداً، وكثيراً ما اضطر للبحث عن سيارة أجرة أو أنتقل في الحافلة، وعندما أطلب منه تفسيراً يقول: لا دخل له في الأمر،

فالسيارة يحتاجها أيضًا مدير المصنع أو عميد الجامعة أو مسؤول آخر لا أعرفه...».

ثم سكت قليلاً عن الكلام، وشفته تترتفان، وواصل قائلاً في تهكم:

«لورأيت السائق كيف يتعامل معي لتعجبت للأمر، كأني أنا السائق وهو الدكتور!...، حتى إنني أصمت دهشة حين يتحدث، فدفعه هذا كي يتجراً علي أكثر... وهل أخبرك بشيء آخر تذهل له؟... مرة بحثت عن سائقي العزيز؛ لأن حاجتي إلى السيارة كانت ملحة جداً، وسألت عنه حتى وجدته في بيته... هل تعرف أين يسكن؟... (فيلا) صغيرة تطل على شاطئ البحر، كان مستلقياً بالقرب منها يستمتع بالجو المنعش، ولما رأيته نهض غير مبال بي وعندما سألته عن الموعد الذي ضربته له أجنبي بوقاحة: إن المدير طلب منه ألا يبتعد عن العاصمة؛ لأنه سيحتاجه، وأن أوامره يتلقاها منه فقط، أما أنا فلا شيء... هل يعقل أن أجد مثل هذه التصرفات في بلادي؟...».

فقلت مبتسماً في سخرية:

«معذرة صديقي، لكنك ستجد هنا العجب العجيب!..».

«وجدت العجب العجيب فعلاً، بل ربما أعجب منه».

فقلت مازحاً: «هات ما عندك».

«ماذا تعتقد أنني أنجزت في عملي خلال الأشهر الأخيرة؟...».

لا شيء... صدقتي إذا قلت لك: أنني لم أفعل شيئاً منذ وصولي إلى

هذه الساعة... قد تتساءل لماذا؟ سأخبرك... في سلوكي وعاداتي اتبعت نفس ما كنت أقوم به في إنجلترا، النهوض باكراً والمحافظة على مواعيت العمل وعدم تضييع ثانية واحدة خلال اليوم كله، هذا هو شأني منذ سنوات... لكن هنا كل شيء يسير بالمقلوب... لا أحد يحترم مواعيت العمل، ولا أحد يعمل بيديه وعقله بقدر ما يعمل بلسانه... أبحث عن أبسط الوسائل لأبشر أعمالي، فلا أجد شيئاً، أقضي يومي كله مثل كرة يتقاذفها مختلف المسؤولين باختلاف مراتبهم، ولا أجنبي في آخر يومي غير وعود كاذبة... أذهب إلى الجامعة وأقول في نفسي هنا مستقبل البلاد وأمل الغد، أبذل جهدي لأعلمهم ما أعلم، فإذا نخبه قليلة تستمع في انتباه، وأما أغلبهم فيتهمسون ويتضحكون كأنهم أطفال صغار لا طلبة جامعيون!!!...».

انتقل ببصره يرقب أمواج البحر المتلاطمة، وأحسست بنفسه تضطرب داخله اضطراب تلك الأمواج، ولأول مرة لمحت طيف دموع تتهاذى في عينيه... قال، وبصره لا يزال معلقاً بالبحر:

«هل تعرف ماذا فعلوا في إنجلترا ليستفيدوا استفادة قصوى من علمي وخبراتي؟!.. لقد جعلوا عدداً معيناً من الطلبة يلازمونني أينما كنت ولا يفارقوني إلا حين أنصرف لأموري الشخصية، يدونون ما أقول وأعمل في الجامعة والمصنع، وفي أثناء الاجتماعات، بل حتى في الملتقيات الدولية التي أحضرها بين الحين والآخر... غيرنا يريدون أن تكون لهم نسخ منا، وقومنا يريدون محو وجودنا من أرضنا ويدفنوننا بعلمنا، فهم ليسوا بحاجة إليه، حاجتهم إلى المال والجاه والسلطان..».

قلت يمزقتني الأسف لحديثه:

«كل ما قلته الآن ليس غريباً عني، وما أتيت بالجديد، فهذه سموم نتجرعها يومياً ولا نموت، وما كنت أستطيع مقابلتك بالحديث عن هذا، وقد عدت بكل تلك الحماسة... تمنيت أن يفتحوا لك الأبواب ويمهدوا السبل أمامك، لكن... أنت كغيرك من العلماء، غرباء في بلاد الجهلة والضعفاء».

أطرق قليلاً ثم رفع بصره، فإذا دمعة تهبط على خده الأسمر، سارع بمسحها وهمس:

«ويل لوطن يمزقه أهله، ويؤثرون مصلحتهم على مصلحته».

افترقتا ذلك اليوم ولم أفعل غير الاستماع إليه ومشاركتي حزنه، فآلهم هم الوطن بأسره، وهو قديم الفناء، لكنه بالنسبة له جديد وأي جديد!!..

حرصت بعد ذلك على الاجتماع به كلما سمحت الفرصة، أحاول التخفيف عنه، وأطبع كل هم بمطابع النكتة والمزاح كما يفعل أغلب الشعب؛ حتى لا يثقل هذا العبء على صدره، لكن عبثاً أحاول، إذ كلما التقيته وجدته في حال أسوأ من قبلها. ذات يوم سألت عنه فلم أجده، فذهبت لزيارته في بيته... أقصد الفندق... وهناك قابلني مسهّداً العينين، أشعث الشعر، كثير الشرود، فلما جلست إليه بادرته بالسؤال، محاولاً إخفاء فزعي عنه:

«كيف حال صديقي الحميم؟ وكيف هي زوجتك وأولادك؟».

«زوجتي وأولادي؟... ربما أحسن حالاً مني لكنهم مثلي... في صمت...».

«هل أنت نادم على عودتك؟» سألته في إشفاق.

رد دون أن يلتفت إلي:

«نادم من ناحية واحدة فقط، أن صورة الوطن التي احتفظت بها في داخلي خلال كل هذه السنوات تشوهت، بل تكسرت كشظايا الزجاج المكسور... لو بقيت هناك ولم أُلح في العودة لظللت محتفظاً بقدسية تلك الصورة...».

فقاطعته معاتباً:

«لا تخلط الأمور يا فؤاد... الوطن بريء من كل التهم، وهو أقدس من أن تصل إليه الأيدي، لكنهم قومي وقومك من شوهوا وكسروا... رجاء لا تضيف لآلام هذا الوطن الجريح ألم ظلم العلماء، بعد أن عقه الأبناء».

فقال، وقد هزه قولي:

«فعلاً، الوطن هو الوطن لم يتغير أو يتكر يوماً لأبنائه، وما وقف في طريقهم، بل إنني شعرت به يضمني إليه حين وطئت قدمي ترابه، وكأنه أم تفتح ذراعيها لاحتضاني بعد طول غيابي».

اطمأننت لحفاظه على ثبات مخبره برغم تهاونه في مظهره، وقلت له سائلاً:

«لماذا لم تذهب لعملك اليوم؟».

فرد ساخراً:

«اليوم؟... إني لم أذهب منذ أسبوع!!...».

«أسبوع!!...».

«اطمئن، لم يسأل عن غيابي أحد، ولن يفصلوني عن العمل، فكل واحد مشغول بنفسه عن غيره».

«لكن، لماذا غيابك؟».

فقال جاداً:

«إنني بصدد التفكير في مخرج نهائي لأزمتي... لا يمكن أن أستمّر على هذا الوضع أبداً».

«هل ستعود إلى انجلترا؟».

«لم أتخذ قراري بعد... أحياناً يبدو لي أن أعود دون تفكير، وأعتبر ما حدث تجربة فاشلة في حياتي، كنت فيها ساذجاً، لكنني - في أحيان أخرى - أقول: لمَ لا أجرب مرة أخرى، فربما تزول العقبات من طريقي، ويلوح فجر جديد... ولكن ما يثبط عزيمتي أنني أشعر في كل يوم بشيء ما يتحطم في داخلي... عجباً... هناك، وسط قوم غير قومي، يدينون بغير ديني، أشعر أنهم يسهمون بكل الطرق للحفاظ عليّ، وهنا أشعر بكل من حولي يحمل معولاً لهدمي وتحطيمي، الأقرباء.. زملاء العمل، الجيران... أنا أفهمهم وأفهم دوافعهم، لم يشغلوا أنفسهم بعظيم الأمور، فشغلتهم بحقيرها... هذه هي سنة الحياة...».

مرت أشهر أخرى ألتقي صديقي فؤاد بين الحين والآخر، وكلما التقينا يبتني آلامه ويفرغ لي ما ب صدره، فأشجعه على الصبر والسعي ما استطعت، إذ إنني أدرك أن عودته إلى بريطانيا خسارة كبرى للبلاد، غير أنني إذا رأيته قوياً مقاوماً يوماً رأيته ضعيفاً مستسلماً في أغلب الأيام، إنه يصارع الأمواج العاتية، فكيف له أن يقاومها بمفرده دون أن تغرقه!!..

وضرب لي موعداً ذات يوم، فإذا به قد أصلح حال نفسه، وبدأ أقرب إلى أول عهده، غير أن نظرات عينيه تقضح اضطراب نفسه وتذبذب مشاعره، وبعد أن جلسنا قال بنبرة ثابتة وصوت قوي:

«لقد طلبتك اليوم؛ لأودعك...».

فسألت مندهشاً: «تودعني؟!!...».

قال، وهو لا يزال على ثباته:

«نعم لأودعك... لقد فكرت كثيراً في الأمر، ولم أجد حلاً آخر غير الرحيل.. إذا بقيت هنا سأجنّ... أنا متعود على أمور كثيرة هي جزء لا يتجزأ من شخصيتي، وفيها حفظ لكرامتي ووجودي، وهذه الأمور للأسف الشديد لم أجد لها هنا...».

«هل هذا قرارك النهائي؟».

فقال، وقد اضطرب صوته:

«قرار نهائي لا رجعة فيه... ليس لدي خيار آخر، إنني هنا أضيع وقتي وعمري في تفاهاات لا معنى لها، وهناك أعمل وأنتج... أنا هنا أفقد الكثير ولا أعطي شيئاً وهناك أكتسب كل شيء وأعطي كل ما أملك... هناك أعيش الحياة الحقيقية بمعناها الواسع، وهنا أمارس الموت البطيء، ولن أرضى بهذا أبداً وفي يدي الاختيار».

لم أجد ما أقوله، فأطرقت صامتاً وقلبي في داخلي يتمزق دون أن أ منع ما لا مناص من حدوثه، فقال مواصلاً حديثه وقد اغرورقت عيناه بالدموع:

«أهم شيء اهتز في تجربتي هذه نظرة زوجتي - وحتى أطفالي - لي... هي لم تقل شيئاً، فزوجتي امرأة عاقلة وحكيمة ومتمسكة بدينها أكثر من تمسك أهلها به، لكنني كلما نظرت في عينيها قرأت جملة هي أشد وطئاً على نفسي من كل ما لقيته من متاعب... إنني أشعر بها تقول في سخرية:

«أهذا هو وطنك؟!!!...، أهؤلاء هم قومك وأهلك؟!...»

قبل أن آتي كنت مزهو النفس ببلدي، وأرضي لكن هذا الزهو تضاعف في نفسي وتلاشى... والآن سأرجع معها إلى بلدها، حيث يقدس العلم والعلماء... حيث العمل الكثير والكلام القليل... سأقبل معك ما عرضوه علي وأكفي نفسي شر القتال...».

فقلت دافع العين:

«لن تتدم على قرارك هذا؟...».

فقال وقد قفزت دمعة إلى خده:

«لن أندم أبداً، فقد بذلت أقصى ما يمكني بذله... لكنني قبل أن أذهب سأدفن أحلامي هنا، وسأعمل هناك بلا أحلام».

ومسح دمعة، ثم وقف يودعني الوداع الأخير، وعندما رأى عبراتي قال محاولاً إخفاء حزنه:

«ما هذا يا سمير؟ إننا سنبقى على اتصال دائم، وإن تباعدت المسافات... هيا اضحك... فالأمر ليس بهذا السواد، إنني جزائري مسلم، وسأبقى كذلك إلى آخر نفس في حياتي، ولا تنس أن لدي أطفالاً سأربيهم منذ الآن؛ ليحققوا الأحلام التي عجزت عن تحقيقها».

وضممني إلى صدره بقوة، قائلاً:

«سنسافر في الصباح الباكر من يوم الغد... هذا آخر لقاء لنا، أرجو أن تذكرني دائماً، وتعذر رجوعي من حيث أتيت».

فقلت، وأنا أمسح دموعي:

«إنني أعذك... هل ستعود لزيارتنا ذات يوم؟».

فقال وهو يمعن النظر إلى وجهي، ويكتم عبرات خانقة:

«لا أعتقد أنني سأعود... لا أعتقد...».

القرية النائمة

حط «علي» الرحال بالقرية الصغيرة؛ ليقيم فيها مع عائلته في المسكن الوظيفي التابع للمدرسة التي عين معلماً بها، وبعد أن ساعد زوجته في ترتيب أغراض البيت، توجه إلى القرية يتعرف عليها. كانت صغيرة بشوارع ضيقة ومنازل بسيطة، ولم يكن بها سوى محلات ومقاهٍ قليلة ومدرسة واحدة تكفي لضم كل الأطفال.

كان علي يستطلع المكان، والدجاج يتسابق أمامه؛ باحثاً عن الغذاء في دعة وأمان، بينما تبدو قطعان الغنم من بعيد ترعى تحت وهج الشمس الساطعة على أرض شاسعة لبست فستانها الأصفر احتفالاً بمقدم الخريف.

بعد جولته السريعة، عاد علي إلى المدرسة، وفي فنائها وقف يتأمل الأقسام الستة بالرسومات الساذجة التي تزين جدرانها ونوافذها، ودخل مكتب المدير، وهو غرفة صغيرة تحوي مكتباً بسيطاً وبعض الأدراج، تؤدي إلى غرفة أخرى أكثر اتساعاً جعلت لاجتماعات المعلمين.

الهدوء يعم المكان، وبرغم ارتياح علي لهذه القرية الهادئة بأهلها البسطاء، إلا أنه تمتم وهو ينظر إلى الأفق الممتد أمامه:

«مكان رائع لمن يبغي الراحة، وهدوء الأعصاب، وأروع بكثير للمتقاعدين والأموات!!!...». عمل علي بالتعليم سنوات عديدة في مدينة كبيرة، فلما يئس من العثور على مسكن مستقل قبل ما عرض عليه، وانتقل إلى هذه القرية، حيث حصل على مبتغاه بجوار المدرسة، فارتاح بذلك من عناء استئجار البيوت وتعب المواصلات والمصاريف التي تستنزف جيوبه شهرياً.

في مسكنه الجديد جلس يشاهد التلفاز مع أطفاله الثلاثة، سألته زوجته:

«هل أعجبتك البلدة؟».

رد دون أن يرفع بصره نحوها:

«لن نجد صعوبة في العيش هنا... إن تأقلمنا بسهولة، وسنقيم بها إلى الأبد...».

فقالت الزوجة بإصرار:

«يجب أن نبقى من أجل هذا المسكن الذي جمع شتاتنا وأراحنا من عبء عظيم، وحتى نتمكن من ادخار بعض المال، فربما اشترينا مسكناً آخر يكون ملكاً لنا أو قطعة أرض نبني عليها البيت الذي نلهم به».

وافقها الرأي، فلا بد أن يفكر بعقله وليترك عاطفته جانباً، ولا يهم إن أعجبه المكان أم لا.

قال ابنه البكر ذو العاشرة:

«هل سأدرس في هذه المدرسة؟...».

فقال الأب:

«نعم... فطبيعي أن تذهب لأقرب مدرسة من بيتك».

فقال غاضباً:

«لكنني أريد العودة إلى مدرستي ومعلمي وأصدقائي».

فرد علي في رفق:

«هنا أيضاً سيكون لك معلم طيب وأصدقاء جدد وستحب

مدرستك حتماً».

فصرخ الطفل قائلاً:

«لا أريد أن أحبها... أرجوك يا أبي، أعدني إلى حيث كنت...

أرجوك...».

اقترب منه الأب محاولاً إفهامه:

«إنك صغير يا بني، وعندما تكبر ستعرف أن الظروف كثيراً ما

تجبر الإنسان على فعل ما لا يريد. إنني لم أختار المجيء إلى هنا، ولكن

لا بد من ذلك إن كنا نحرص على مستقبل أفضل لنا جميعاً».

نهض علي قبيل أذان الفجر، توضأ استعداداً للصلاة، وجلس يقرأ

ما تيسر من القرآن الكريم، ولم يرفع بصره عن المصحف، حتى رأى

خيوط الصبح تتسلل عبر نافذة الغرفة، وتعجب كيف لم يسمع صوت المؤذن. في اليوم المقبل أرهف السمع ينتظر أذان الفجر، لكن دون جدوى، فصرى في البيت وعندما طلع الصباح توجه إلى مسجد القرية الوحيد وسأل عن إمامه فلم يجده، فانصرف إلى المدرسة، وعند صلاة الظهر اقترب علي من المؤذن، وسأله:

«هل أذنت لصلاة فجر هذا الصباح؟».

فأجابه المؤذن دون أن يلتفت إليه:

«لا...».

«وأمس أيضاً؟...».

فنظر إليه المؤذن - وهو كهل قارب الستين - وقال:

«أنا لا أؤذن للفجر منذ مدة طويلة!!!».

فدهش علي للأمر، وسأل مستفسراً:

«ولماذا؟!!!».

رد دون اكتراث:

«الإمام لا يأتي ليقيم الصلاة، فلماذا أؤذن، فيأتي الناس

سدى!!!».

سأل علي، وهو يزدد دهشة:

«ولماذا لا يأتي الإمام لإقامة الصلاة؟!!!».

فحدجه المؤذن بنظرة غاضبة لكثرة أسئلته، وقال منصرفاً:

«هو أمامك ... أسأله...».

توجه إليه عليّ، وبعد أن ألقى السلام بادره بالسؤال:

«هل لي أن أسأل: لِمَ لا تقام صلاة الفجر في هذه القرية؟!...».

تشاغل الإمام بحبيبات سبحته يعيث بها بين أصابع يمينه، وتمتم بكلمات غير مفهومة، فلما سمع سؤال محدثه توقف عن الهمس، وجمع سبحته في كفه وقبلها، ثم قال وهو يتفحص عليّاً من خلال نظارته السمكية:

«ومن أنت حتى تسألني هذا السؤال؟!...».

فقال عليّ محترماً وقار الإمام وكبر سنه:

«أنا مصلٌّ حرصت طوال حياتي على صلاة الفجر، وعندما أقمت حديثاً بقريتيكم عجبت كيف لا تقام هذه الصلاة، ولا يؤذن لها أصلاً».

رد الشيخ متصنعاً الهدوء:

«كنا نقيمها فيما مضى من الزمان، لكن الناس لا يحضرونها أبداً، وكنت أجد نفسي دائماً وحدي مع المؤذن فقط، لذلك لم أعد أقيمها لكبر سني وملازمة المرض لي».

استغرب عليّ لمنطق الرجل، وتفكيره الغريب، فقال:

«ولِمَ لا ترتاح الآن، ويستخلفك إمام شاب يتولى هذه المسؤولية

عندك؟!...».

أوشك الإمام الشيخ أن يهجم عليه لسماعه هذه الكلمات، لكنه تماسك قائلاً:

«أنت تعرف شباب اليوم لا يستقرون على حال، وليسوا أهلاً لتحمل أي مسؤولية، ثم إنني إمام هذه القرية منذ أكثر من أربعين عاماً، ولن يرضى أهلها بغيري إماماً لهم...».

ومشى منصرفاً يتكئ على عصاه، كأنه يخشى أن يمطره علي بأسئلة أخرى تعجزه عن الجواب.

بقي علي مشدوهاً، وتأهب للانصراف حين أمسك به المؤذن هامساً في أذنه:

«لا تصدق كلامه... إنه يكذب!!...».

والتفت حوله، حتى إذا اطمأن أن المكان خالٍ واصل يقول:

«لقد ورث الإمامة أباً عن جد، وهو لن يتنازل عنها إلا إذا سيق إلى القبر، وطالما اشتكى منه أهل القرية لكن دون جدوى... هل تصدق أنه حين يحصل على عطلته السنوية ككل الموظفين لا تطأ قدمه المسجد، حتى تنتهي عطلته!!... وفي أثناء موسم البرد والصقيع يركن إلى بيته ويخشى الخروج إلى الصلاة!!... هكذا كانت البداية مع صلاة الفجر، ثم محاها من القائمة لتصبح الصلوات الخمس عنده أربع صلوات، وليس خمسا!!...».

وصمت قليلاً ثم أضاف قائلاً:

«لا تعتقد أننا ساكتون عنه، لكن قريتنا صغيرة كما ترى والإمام له أبناء غلاظ جهلة، ومن مس أباهم بسوء دفنوه حياً!!...».

وانصرف بعد أن أوصى عليا بكتمان ما سمعه منه؛ خوفاً من دعاء الإمام عليه، أو بطش أبنائه به!!... في المقاهي والشوارع، كان الناس يتحدثون عن محصول الأرض والآبار المحفورة وعن مشقة الزراعة والرعي وقطعان الغنم والأبقار، فإذا انتهوا من هذه الأحاديث انصرفوا إلى تناقل أخبارهم متحسرين على حاضريهم آسفين على مستقبلهم، وحاول علي أن يندمج معهم فلم يستطع، فعاد إلى بيته يلزمه أغلب الأوقات.

بدأ الموسم الدراسي، فشعرت عائلة علي ببعض الحياة تدب في أوصال القرية الميتة، وأحدثت أصوات الأطفال المصطخبة ضجيجاً أشبه بضجيج المدينة التي اشتاقوا إلى ضوضائها وصخبها.

انطلقت الدراسة بوتيرة بطيئة، واعتقد علي أنها ستتسارع، لكن وجد نفسه المعلم والمدير والحارس أحياناً في مدرسة لا يأتيها أحد!!..

كان المدير ومعلمو المدرسة يقطنون المدينة المجاورة، ومع تردد غياب المدير كثر غياب المعلمين بحجة المواصلات والسكن والمرض وحجج أخرى كثيرة، وأصبح على المعلم الوحيد الذي يمارس عمله بصورة طبيعية، محافظاً على الوقت، حريصاً على تعليم تلاميذه، وهو يستشعر رقابة الله، وكلما فتح فاه بالاستنكار قال زملاؤه:

«لو منح لنا سكن مثلك لحرصنا على عملنا مثل حرصك، لكن ماذا عسانا نفعل؟!...».

صبر علي أشهراً طويلة يسعى لإصلاح حال القرية، مسجدها ومدرستها، وتغيير ما يعقول كبارها، وزرع بذور الخير والصلاح في

قلوب صفارها، وكان كلما خطا خطوة للأمام شعر بقوة خفية تعيده للوراء بعشرات الخطوات، وتسلل اليأس إلى قلبه، وتملكه الملل من هذه القرية الظالم أهلها، وبعد تفكير طويل قرر الرحيل.

فاجأ زوجته ذات يوم قائلاً:

«سأكمل العام هنا من أجل تلامذتي فقط، وسنرحل مع عطلة الصيف، من المستحيل البقاء في هذه البقعة المقفرة».

فذهرت الزوجة، وقالت:

«والمسكن، وادخار المال، وبيت المستقبل؟!...».

أسف لضياع هذه الأحلام، وقال:

«يجب أن نضحي بشيء من أجل أشياء أخرى... هناك استقرار يدفع للإنتاج والعمل، أما استقرارنا بهذه البلدة فيعني الموت البطيء... لا مستقبل لنا ولا لأولادنا هنا، ولا بد من الرحيل...».

بدا الحزن على وجه الزوجة، فقالت:

«ولكن...».

فقاطعها علي، قائلاً:

في المدينة لم يكن لدينا الوقت لكثرة أشغالنا، وتعدد الأماكن التي نرتادها، أما هنا فلدينا متسع من الوقت، ولكن ماذا عسانا نفعل؟!... أشهر عديدة مرت، ولم أستطع زحزحة ذلك الإمام عن مكانه، وعجزت عن إيجاد حل لمشكلة صلاة الفجر حتى الآن، والتلاميذ الأبرياء في

المدرسة يضيعون أمام عيني، ولم أستطع فعل شيء، وبسبب كل هذا ضميري يعذبني وضيق صدري يشتد علي، فلماذا أبقى؟!... ليضيع عمرنا كله سدى؟!...».

كانت الزوجة تشعر بالضيق نفسه، لكنها لم تكف عن إقناع نفسها بالصبر من أجل تحقيق تلك الآمال الجميلة، فلما حدثها زوجها عن آلامه تفهمته ولم تجد بداً من الصمت واثقة مما يقرره.

أوشك العام الدراسي على الانقضاء، وانتشر في القرية خبر مرض الإمام الذي عاجله الموت بعد أيام قليلة، وفوجئ علي بأهالي البلدة يجلسون إليه بعد صلاة العشاء من أحد الأيام، وقال أحد الشيوخ بابتسامة مشرقة:

«اتفقنا جميعاً على جعلك إماماً لقريتنا خلفاً للمرحوم، فماذا تقول؟».

همّ بالكلام معترضاً، فقال المؤذن والفرحة تتلأأ في عينيه:

«سأؤذن اليوم لصلاة الفجر، وستكون أول من يقيمها بعد أشهر طويلة من النوم في أحضان الجهل والظلم».

أمسك علي لسانه، ومنع نفسه من إخبارهم برحيله، وقال يحدث نفسه:

«كيف أقتل هذا الأمل الجديد في حياتهم، وأنا أمس فرحتهم وسعادتهم؟!...».

في صباح اليوم المقبل أمّ عليّ الناس في صلاة الفجر، وشعر بطعم الحياة يعود إليه، وازدادت فرحته حين صافحه المصلون، قائلين:

«إننا سعداء بك إماماً لنا ومعلماً لأبنائنا».

لم يكن علي يحلم يوماً أن يكون إماماً، لكن ثقة الناس به ملأته قوة و يقيناً، فشمر عن ساعديه، ومضى يجاهد بكل طاقته، محاولاً ما استطاع أن يكون كالغيث أينما وقع نفع.



أمسية عائليّة

دخلت البيت بعد يوم متعب، فاستقبلتني رائحة القهوة وهي تجول في الفضاء تبعث نشوة غريبة في النفس، وتوجهت مباشرة إلى المطبخ لأجد أمي قد أعدت الصينية وتنتظر قدومي. جلست قربها أمام المائدة وشعرت بسعادة غامرة، وأنا أرقبها تصب لي فنجاناً من القهوة، ولذة كبيرة وأنا أرتشفها على مهل، وأستمع إلى أحاديثها، فنسيت ما كان في يومي، وسبحت في أجواء هذه الجلسة الحميمة مع أحب الناس إلى قلبي وأقربهم إلى نفسي وأعلمهم - بين الخلق كلهم - بما يجول في أعماقي الدفينة.

وأعمنت النظر إلى ملامحها، إنها امرأة جاوزت الستين بقليل، لا تزال تحتفظ بحيوتها برغم التجاعيد التي ظهرت في مواضع متفرقة من وجهها والشيب الذي غزا شعرها. نظرت في عينيها، فإذا بهما نبع لا ينبض، ونور لا يخفت، ودفع لا يبرد!!.

وأعجب من سذاجة أمي، وكأنها طفلة لم يتغير منها إلا سنوات بقائها على الأرض، وما شهدته من أحداث، في حين بقي قلبها ينبض نبضات الطفولة البريئة، ربما هو شأن كل أم في الدنيا لعظم الحب الذي تحمله في صدرها. لا أذكر أمي إلا وهي في البيت تطبخ وتغسل وتنظف من أجلنا نحن أطفالها، لقد باعت عمرها؛ لتشتري راحتنا عن

طيب خاطر ورضى كامل، وما أسعدها حين ترانا سعداء!!... دخل أخي «عادل» ذو الثمانية عشر ربيعاً، صفق الباب وراءه، وأقبل بوجه متجهماً كأنه يحمل هموم الدنيا على كتفيه، قالت أمي بحنو كبير:

«ما بك؟!... تبدو غاضباً...».

فقال بحلق شديد:

«لا شيء...».

«أتريد كوباً من الحليب؟».

«لا أريد...».

وصمت كأنه بركان على وشك الانفجار، ولم تطق أمي أن تراه على هذه الحال، فقالت:

«لماذا لا تحدثني عما بك، إنني أمك ألتخفي عني أموراً لا أعلمها؟!...».

صرخ في وجهها، قائلاً:

«أتركيني وشأني ولا تسأليني عما بي...».

وخرج كما دخل لا يطيق نفسه، وآلمتني أمي، وهي تتبعه بنظرات حزينة، وتقول:

«لا أدري ماذا جرى لإخوتك؟!... إنهم يتغيرون بشكل مفاجئ ومخيف، لم أعد أفهمهم، ولا أفهم ما يريدون».

فقلت لها أطمئنها:

«ليست هي حال إخوتي فقط، بل حال جيل اليوم، حيث لا يعرفون ما يريدونه!!...».

وخرج «فؤاد» ذو الثلاثين ربيعاً من غرفته يتشاءب ويتمطى، فهو يقضي نصف يومه في النوم والنصف الآخر يشاهد ما يعرض في مختلف قنوات (التلفزيون) وإن سئم من الاثنين خرج ينضم إلى أصدقائه في المقاهي يعيدون نفس كلمات التذمر والشكوى والملل، وربما جابوا شوارع المدينة كلها جيئةً وذهاباً، فهو - كغيره من أصحابه - لم يستطع الحصول على عمل برغم أنه يحمل شهادة جامعية، وما بذله من جهد لم يثمر شيئاً غير بقاءه في قائمة البطالين.

انضم إلى مائدتنا وأخذ يحتسي فتجاناً من القهوة، فسألته بمرارة:

«أليس هناك من جديد؟».

فقال ضاحكاً:

«لا جديد يذكر، ولا قديم يستحق الذكر».

فقالت أُمي:

«توكل على الله يا بني، ولا تتوقف عن السعي، وسيأتي الفرج بإذن الله».

«السعي؟!... إنك تعرفين جيداً أنني لم أترك مكاناً إلا ووضعت فيه ملفاً، ولكن دون جدوى».

فقالت تترجاه:

«حاول مرة أخرى، لقد مضت ست سنوات على تخرجك، ولا عمل لديك، حتى مصروفك اليومي تأخذه من والدك، فمتى تعمل وتزوج وتفتح بيتاً؟!...».

فقال، وابتسامة ساخرة على شفثيه:

«ما عساي أفعل؟! ظروف الحياة تجبرنا على الزواج، ونحن على أعتاب الأربعين!!...».

فأكملت ضاحكة:

«والفتاة بعد سن الثلاثين... إن وجدت من يتزوجها!!...».

دخل أخي الأكبر «جمال» وأثار (الطبشور) على وجهه، يعمل مدرساً منذ سنوات ولم يتزوج إلا بعد أن قارب الأربعين، انتظر طويلاً؛ عله يحصل على سكن خاص، فلما يئس تزوج وأقام معنا في انتظار أن يجد بيتاً يستأجره، فنحن عائلة كبيرة والكثافة السكانية ارتفعت منذ زواجه وإنجابه لطفلين.

جلس معنا يقاسمنا جلستنا، كان يبدو مرهقاً حزيناً شاحب الوجه، ولم يعد «جمال» المرح الذي لا يتوقف عن الضحك، أصبح جدياً وزادته المشكلات وقاراً، كما أنبتت المسؤولية شعيرات بيضاً انتشرت بسرعة اللهب بين شعره الأسود. سألته أمي:

«هل ستمكث زوجتك طويلاً عند أهلها؟!»

فرد بعبوس:

«بضعة أيام...».

«ولماذا أنت حزين؟!...».

«بل قلولي: لمَ لا أحزن؟!... المطالب كثيرة وما أقتاضه من أجر لا يكفي، ولا يمكنني ادخار دينار واحد، بل على العكس الديون تثقل كاهلي ومسؤولية الأطفال تؤرقني ويتمكنني الهلع كلما فكرت في المستقبل».

ربت أُمي على كتفه، وقالت:

«اصبر يا بني، وسيأتي الفرج بإذن الله».

فثارت ثورته، وقال غاضباً:

«تعقدين الأمر سهلاً... إنني لا أستطيع الصبر، بل أكاد أجن...».

وصمت يفكر، ثم واصل قائلاً:

«ليتني لم أتزوج، ولم أنجب أطفالاً يخنقون أنفاسي بمسؤولياتهم الثقيلة».

لم نستطع التخفيف عنه، وهو يشكو دوماً من فاقته، ولا يكف عن القول: إن أجر التعليم لا يحيي ولا يميت!!...!

عاد عادل وتوجه مباشرة إلى غرفته، حيث وصلنا صوت المسجل يصدح بموسيقى غربية صاخبة، ذهب إليه فؤاد، وطلب منه أن ينقص الصوت، لكنه أبى، وأوشكا أن يتشاجرا لولا تدخل أُمي بغلق الراديو

وأخراجهم من الغرفة، وبقي عادل يرغي ويزبد كأنه الريح العاصفة،
ثم خرج مرة أخرى، فعمّ البيت هدوء غريب.

سألتني أمي:

«ألا تعرفين ما به؟...».

فقلت:

«إنها المراهقة!...».

«المراهقة!... وما هي؟...».

«مرحلة من العمر يمرّ بها الفتى يكون فيها مرهف الإحساس،
متقلب المزاج تأثر العواطف، كثير المطالب، سريع الغضب...».

فقاطعتني، قائلة:

«مثل عادل؟...».

«نعم... هذا أوان المراهقة، منعطف خطير بين طفولة ذاهبة
ورجولة قادمة، لذلك لا بد من اللين في المعاملة ومحاولة تفهمه؛
حتى تمر بسلام...».

أرهفت أُمي السمع تطلب مزيداً عن هذه المراهقة التي لم تسمع
عنها من قبل، فلما انتهيت من الشرح قالت، وهي لا تزال مشدوهة:

«ولماذا لم نعرف المراهقة نحن؟... ألم نكن بشراً مثلكم؟...».

وبينما أخذت أستجمع ذكائي لإجابتها أكملت، قائلة:

«كنا نعيش حياة بسيطة وسهلة بمطالب يسيرة، وبرغم أننا كنا نقيم في بيوت صغيرة ونرتدي لباساً ساذجاً، ونأكل ما يسكت جوعنا إلا أننا كنا سعداء حقاً في طفولتنا وشبابنا، وعندما تزوجنا تحملنا مسؤولية تربية أطفالنا بصدر رحب، ولم نضق بهم برغم فقرنا... أما الآن فالأعزب كالمتزوج، والصغير كالكبير، والعامل كالعامل، والفتى كالفتاة، كلهم يشكون ويتذمرون!!... يا لغرابة هذا الزمان وأهله!!...».

وبينما نحن جالسون، دخلت أختي الجامعية «هند» تتأبط كتبها، ألقتها على الأريكة، ثم أتبعها بجسدها النحيل، وقالت:

«أشم رائحة قهوة لذيذة، ألا تصبون لي فنجاناً منها؟».

هممت بالنهوض فسبقته أمي، وأسرعت بتحضير أخرى وضعتها أمامها، وهي تقول مبتسمة:

«كيف حال الدراسة اليوم؟...».

ردت، وهي تداعب شعرها الطويل بأناملها الرقيقة:

«لم ندرس اليوم، الأساتذة في إضراب».

فحدجتها أمي بنظرة غاضبة، وقالت:

«وأيّن كنت طوال اليوم؟... لماذا لم تعودي؛ لتساعديني في أعمال البيت الكثيرة؟...».

لم تأبه هند لكلامها، وقالت وهي ترتشف قهوتها:

«قضيت اليوم كله مع صديقاتي في المكتبة نحضر البحوث، فالامتحانات على الأبواب».

نظرت إلى أختي، وكأنني أراها لأول مرة... هي تبذل كل شيء لإظهار جمالها خاصة بعد دخولها الجامعة، فإذا ناقشها أحد في الأمر قالت:

«هكذا ترتدي بنات اليوم في الجامعة ولا أريد أن أبدو سخيفة وريضية بينهن!!...».

فإذا سألتها هل الجامعة للعلم والتعلم أم لأشياء أخرى؟! ردت بجرأة:

«هي للعلم طبعاً، لكنها أيضاً للأشياء الأخرى!!...».

قلت لها، وأنا لا أرفع بصري عنها:

«إنه عامك الأخير بالجامعة وأرى دخولك إليها كخروجك منها لم يصف شيئاً لحياتك سوى الاهتمام المبالغ بزيك وهندامك، أما عقلك فقد توقف عن التفكير منذ أمد... ألم يئن الأوان لتحاسبي نفسك!!?...».

فقلت، وهي لا تزال تعبت بشعرها الطويل:

«سأحاسب نفسي، وفي هذا العام بالذات!!...».

ارتسمت على وجهي ابتسامة الفرح، لكنها تضاءلت حين أكملت تقول:

«إذا لم أخرج بشهادة جامعية وزوج وسيم!!...».

وضحكت لخيبة أمني بجوابها، ثم أردفت:

«هذا هو القانون المعمول به في الجامعة عند أغلب الطالبات وأنا أحرص منهن على تطبيقه!!...».

في هذه الأثناء دخلت أختي «سعاد» و«حياة» تحملان «أيمن» الصغير، جلستا على أقرب أريكة، ولم تصبر أمي، فبادرتهما بالسؤال:

«ماذا حدث بالمحكمة؟!... هل جد جديد؟!...».

فقالت حياة، وهي تمسح العرق المتصبب على جبينها:

«أجبرته المحكمة على دفع نفقة الطفل وطالبته بدفع مبلغ مالي جزاء تأخره في القيام بواجبه...».

وصمتت، ثم أضافت تقول:

«الجبان الحقير، اعتقد أنه سيطلقني، ويبدأ حياته من جديد، متناسياً أن له ابناً معي...».

فقالت هند معقبة:

«بالطبع، يجب أن ينسى ابنه مادام قد عاود الزواج ويعيش سعيداً».

اختفت أمي، ثم ظهرت تحمل إبريق القهوة في يدها، وقالت مبتسمة:

«الحمد لله أن حكمت المحكمة لصالحك، فنحن لا نطلب منه أكثر من أن يقوم بواجبه».

فقالت حياة غاضبة:

«يا له من واجب يسير، أن يدفع دنائير قليلة لا تكفي لغذاء الطفل، فكيف بلباسه ودوائه؟... وماذا عن تربيته والاعتناء به، كل هذا يقع على كاهلي أنا وحدي، أما هو فهناك ينعم بزوجته الجديدة...».

وخرجت من الغرفة تبكي حظها التيس، فغشي الغرفة صمت رهيب، قطع له صوت أيمن وهويكي، إذ افتقد أمه، فحملته جدته وأخذت تلاعبه وتغايه حتى سكت عن البكاء، وسكن إليها يبغي النوم، تنهدت سعاد بصوت مسموع، فقالت أمي:

«وماذا عنك أنت؟... هيا أفرغي ما بصدرك...».

قالت سعاد دون مقدمات:

«قضيت معظم النهار أبحث عن عمل في مختلف الشركات والإدارات بلا فائدة، لقد سئمت المكوث في البيت والعمل طوال اليوم كخادمة!!...».

همت أمي بالرد عليها، فأسرعت هند تقول باستهزاء:

«إذا كان فؤاد بشهادته الجامعية لم يجد عملاً حتى الآن، فما بالك أنت ولم تقطعي في التعليم إلا شوطاً قصيراً...».

رمقتها سعاد بنظرات غاضبة، وتبادلتا كلمات جارحة، وأوشكتا أن تتشاجرا لولا تدخل أمي التي قالت توبخ سعاد:

«لا أدري لماذا تعديّن نفسك خادمة، حين تساعدني في أعمال البيت؟... ولا أفهم لِمَ كل هذا الحرص على العمل خارج المنزل؟!...».

فاعترضت سعاد، صارخة:

«ومن يشتري لي ما أحاجه؟!... أبي براتبه الضئيل الذي لا يسد احتياجات البيت؟، أم أخي العاجز عن إعالة أسرته الصغيرة؟!...».

بعد تناول طعام العشاء، جلست أمي بجانب أبي، وكعادتها بدأت تتقل له هموم إخوتي الكثيرة بتفاصيلها المثيرة، كان مشغولاً بمتابعة نشرة الأخبار، فلما أتت على نهايتها نهض دون أن ينبس بكلمة، فلما أمسكت بيده محاولة إبقاءه لمناقشة أمر أولاده، دفعها بقوة قائلاً:

«دعيني أذهب للنوم، فأنا متعب، ولا أقوى على الكلام، اتركيني وشأني...».

ودخل غرفته، وأغلق الباب وراءه، ولحظات فقط بدأ شخيره يخترق الجدران معلناً عن نومه!!... أوى كل فرد من أفراد أسرتي إلى مخدعه، مستسلماً لأفكاره وهمومه، بينما بقيت أمي في غرفة الاستقبال تنتظر إلى التلفاز ولا ترى شيئاً، كان ذهنها مشغولاً بما آل إليه أطفالها الصغار. فاجأتها بمقدمي، جلست بقربها أمعن النظر في عينيها وسط هدوء الليل وسكونه. همست، والدمع يتلألأ في عينيها:

«ظننت أنني سأرتاح عندما يكبر إخوتك، لكنني مخطئة، فمع كبرهم ازدادت همومهم وتعددت مشكلاتهم، ولا أعتقدني سأرتاح من عبئهم».

فقلت أداغب شعرها الذي خضبته بالحناء؛ لإخفاء بياضه:
«لست وحدك من يعاني، بل كل أمهات الدنيا... وبيتنا الصغير
صورة لما يتفاعل في المجتمع الكبير».

وقرأت في عينيها قلقاً واضطراباً، فقلت أمازحها:
«لا تحملي همّاً أمي... فلكل مشكل حل، فقط لا تحرمينا حبك
وحنانك، ولا تسينا في دعائك؛ عسى أن يحفظنا الله ويجعل من بعد
عسر يسراً...».

ضمتني إلى صدرها، وقالت مبتسمة ابتسامتها الساحرة:
«أنت نور عيني في هذا البيت، ولا أدري ماذا سيحصل لي إذا
تركتني، كلهم يتذمرون ويشتكون إلا أنت، وحدك تستمعين إلي
وتشعرينني بالأمان».

ولم أتركها حتى ذهبت لمخدعها مطمئنة، فلما تيقنت من نومها،
مكثت بمفردي أفكر في مشكلات بيتنا التي لا تنتهي، ولم أتحمل ضغط
الأيام وقلق أمي المتزايد، فأطلقت العنان لدموعي تهبط على خدي في
صمت.



مات .. لم يمّت!!

انتشر الخبر بين الأهل والأقارب انتشار النار في الهشيم، وتناقلت
الأسنن النبأ تقول:

«أحقاً مات الحاج عيسى؟...».

وما هي إلا بضع ساعات حتى كان منزل الحاج عيسى يغص
بالزائرين لتعزية العائلة في فقيدهم، وكانت النساء أكثر عدداً من
الرجال، جلسن في غرفة فسيحة يهيئن أعينهن؛ لتدرّ بعض قطرات
الدمع، ويلبسن أوجههن قناع الحزن والألم لفقد الحاج المرحوم...

في غرفة مجاورة جلست مقربات الفقيد يحضرن طعام «الكسكسي»
في قصعة كبيرة جعلت خصيصاً للأفراح والأتراح على حد سواء.

في غرفة ثالثة، كان جسد الحاج عيسى ممدداً تحت غطاء أبيض،
وبالقرب منه جلس أكابر العائلة من الرجال يتهامسون في أحاديث
شتى وينتظرون قدوم الطبيب؛ ليؤكد الوفاة، فيبادروا بغسل الميت
وتجهيزه؛ ليصلى عليه بعد أقرب صلاة.

تعالّت أصوات النساء بالبكاء والعويل، وهي تتعالى كلما دخلت
قريبات المرحوم أو بناته المتزوجات في بقاع شتى، واختلطت

بتلك الدار أصوات متفرقة تندب الميت وتذكر مآثره وتعدد خصاله الحميدة، وما زالت الأمور كذلك حتى دخل الطبيب وتوجه مباشرة إلى المرحوم، ووسط وجوم الحاضرين أمام آية الموت العظيمة، كشف عن وجه الحاج عيسى الناصع البياض، الحافل بالتجاعيد، ومكث بضع دقائق يفحصه، ثم قال لجميع الرجال وعلامات الاستغراب، بادية على وجهه:

«لم أرَ شيئاً كهذا في حياتي!!...».

سأل أحد أبناء الحاج:

«ما الذي حدث يا دكتور؟!!...».

«لم أرَ بيتاً اجتمع فيه المعزون بكون رجلاً... رجلاً لم يمّت بعد!!...».

صعق الجميع لسماع هذا الخبر، ولم يصبر أحدهم أن قال:

«هل تعني أن الشيخ حتى الآن لم يمّت؟!!...».

فقال الطبيب، مؤكداً:

«نعم... إنه في غيبوبة فقط، وقد يصحو الآن، وربما لن يصحو إلا بعد أيام».

دهش أفراد العائلة، بينما قال كبيرهم، وهو شيخ جاوز الثمانين:

«كيف لم يمّت وكنت إلى جواره لحظة أسلم الروح، وأنا من أكد

وفاته؟!!... أتكذبني يا حضرة الطبيب؟!!...».

فقال الطبيب يهدئه، وقد رأى امتناع لونه ورعشة يديه المتزايدة:
«معاذ الله أن أكذبك أيها الشيخ، أنت لم تخطئ في تقديرك،
فالغيوبة تشبه الموت كثيراً، بل قد لا تحدث غيبوبة إلا ويلحقها موت
مؤكد».

«لكنك تقول: إنه قد يصحو». قالها شخص آخر.

«نعم، احتمال وارد». رد الطبيب.

وعمّ الغرفة سكون رهيب لا يقطعه غير أصوات النساء وهن مازلن
ينتحنن!!...

تمتم الشيخ الكبير، كأنه يحدث نفسه:

«حضرت - في حياتي المديدة - وفاة عشرات الأشخاص، ولم
أخطئ يوماً في تأكيد وفاة شخص ما، ويأتي اليوم هذا الطبيب يقول
غير ما قلته... كل شيء تغير في هذا الزمن، ولم نعد نتفق حتى على
رجل ممدد أمامنا إن كان ميتاً أم لا!!!...»..

خرج الدكتور بعدما أكد أن الحاج عيسى لم يميت، ومن ثم لا ينبغي
فعل أي شيء، والانتظار حتى يصحو من غيبوبته، وأزيح الغطاء عن
وجه الميت الحي، وبقي الجميع ينظرون إليه مذهولين، وفي أعماق
بعضهم خوف دفين تجاه هذا الشيخ المتشبت بالحياة برغم أعوامه
التسعين!!..

وتوجه الابن الأكبر مفزوعاً إلى النسوة، وصرخ في أوجههن أمراً:

«كفى بكاء وعويلًا... أبي لم يمِت... إنه لا يزال على قيد الحياة!!...».

ولحظة واحدة كانت كافية لتصمت كل النساء، وتتوقف أعينهن عن ذرف الدموع، وبقين صامتات كأنهن لم يستوعبن كلامه، فلما استوعبته بدأت سلسلة التساؤلات والاستفسارات، ولم يقل الابن غير ما سمعه من الطبيب، ثم انصرف معرضاً عن ثرثرتهن ودهشتهن.

لم تكن هذه الحادثة لتصرف النساء عن مجلسهن، بل بقين يتجاذبن أطراف الحديث، ويتبادلن ما جدّ من أخبارهن، وكأنهن لم يلتقين ببعضهن منذ أمد بعيد، واعتبرن لقاءهن فرصة لا تعوض، وما زلن كذلك حتى صفت الموائد ووضع الطعام، فتناولنه بشراهة وهن يضحكن ويقهقهن، ثم رفعت صحائف الطعام لتحل محلها أقداح القهوة، فاحتسبنها على مهل، وأفواههن لا تتوقف عن الكلام، ولم يغادرن المنزل إلا في المساء دون أن يكلفن أنفسهن عناء التأكد من حياة الشيخ أو موته!!...!!

طلالت غيبوبة الشيخ، فقلق أهله للأمر، وقاموا باستدعاء طبيب آخر، وبعد فحصه قال مؤكداً:

«لا يزال على قيد الحياة... دعوه، فقد يفوق بين لحظة وأخرى!!...».

مرت أيام عسيرة كان الأقارب لا يتوقفون عن الزيارة للسؤال عن حال الحاج، وجاء يوم انفض فيه الناس عن غرفته وبقي وحيداً، وفجأة فتح عينيه ونظر حوله، فإذا الظلمة تغطي المكان، وإذا هو ممدد

كالأموات، وأرهف السمع، فإذا أصوات تصله من الغرف المجاورة لم يتبينها، رمى اللحاف الأبيض من فوق جسده النحيل ونهض مستنداً إلى الحائط حتى وقف على قدميه الواهنتين، وشعر بدوار كاد يسقطه أرضاً، لكنه التصق ببعض الأثاث حتى استعاد توازنه، وبخطوات بطيئة أشبه بتلك التي يخطوها الطفل حين يحاول المشي لأول مرة وصل الغرفة التي تتبعث منها الأصوات، وأمام بابها وقف بقامته المديدة، ووجهه الأصفر، ولحيته البيضاء القصيرة، ورأسه الأشيب بشعيراته القليلة المتفرقة... وقعت عليه عين زوجته الحاجة «فطيمة» فصرخت صرخة انتبه لها الحضور، وسقطت مغشياً عليها، وهي تشير بإصبعها إلى الباب!!!... توسط الحاج عيسى مجلس ضيوفه، وضحك الجميع حين أفاقت الحاجة من إغمائها، وبعد أن سمع من أهله ما حدث قال يداعب لحيته البيضاء القصيرة:

«اعتقدتم أنني مت وأقمتم على رأسي مأتماً وعويلًا!!!... لكن الحمد لله أن مدّ في عمري؛ لأعيش معكم أياماً آخر، فما شبت من الدنيا بعد، وكأنني لم أقم فيها غير بضع ساعات!!!...».

اجتمع حوله أولاده وأحفاده، وقضوا رفقته وقتاً ممتعاً يبادلونه أحاديث ممزوجة بالضحك والمزاح، وبعد أن اطمأنوا على صحته ولا حظوا مرحه ونشاطه تفرقوا عنه وودعوه وهم يوقتون أنه قد يعيش شهراً وربما أعواماً أخرى.

مرت أسابيع عديدة، نسي فيها الناس أمر الحاج، حتى جاء يوم نادى منادي الموت معلناً «لقد مات الحاج عيسى!!!...»، وتوافد الناس إلى بيته معزين باكين، وجاء الطبيب مرة أخرى يعلن للملا:

«إنه لم يمت بعد!!... بل دخل غيبوبة قد تطول وقد تقصر!!...».

وطالت مدة الغيبوبة، ثم نهض الحاج كالمرة السابقة متشبثاً بالحياة، يقبل عليها بنهم من لم يعيش فيها إلا قليلاً، وتفرق الجمع عنه حين اطمأنوا عليه، وهم يزدادون دهشة لأمره.

مضت أسابيع أخرى بدا فيها الشيخ سعيداً ونشطاً لا يشكو مرضاً، واعتقد الناس أنه لن يموت، وفي نفسه كل تلك الرغبة في الحياة.

جاء يوم عاودت الغيبوبة زيارته، فتركه أهله ممدداً في غرفته ينتظرون متى يفيق، ولم يحضروا الطبيب هذه المرة، وما جدوى حضوره، وقد أصبحوا يعرفون حالته، حتى الشيخ الكبير لم يتقدم منه ليؤكد غيبوبته، فقد نفذ يده من كل هذا منذ خالفه الطبيب الرأي وصدق ليكون هو من المخطئين، وفي أرذل العمر!!... ولم يأت أحد لزيارته، وبقيت الغرفة مغلقة لا يرتادها أحد سوى زوجته أو أولاده يفتقدونه هل أفاق أم لا.

وبدأت رائحة كريهة تنبعث من الغرفة، وسارع الأهل لإحضار الطبيب، فلما رآه صرخ قائلاً:

«ما هذا الجرم العظيم!!... أتركون رجلاً ميتاً حتى يتعفن!!...».

فصرخت زوجته:

«أو مات زوجي!!...».

فرمقها الطبيب بنظرة غاضبة قائلاً:

«مات؟... بل شبع موتًا!!!... إنه ميت منذ أيام، وقد بدأ جسمه يتعفن، ويطلق هذه الرائحة الكريهة!!!...».

ونظر إلى أولاده، وقال مذكرًا في أسى:

«كان عليكم إكرام والدكم بالإسراع بدفنه... هذا أدنى حق من حقوقه عليكم».

وتتمم أحد أولاده خجلًا:

«كنا نعتقد في غيبوبة... كالمرات السابقة!!!...».

وسارعوا بغسله وحملوه إلى المسجد؛ ليصلى عليه، ثم بادروا بدفنه في المقبرة، ولم يحضر جنازته غير أولاده، ولم يأتِ للتعزية أحد!!.



obeikandi.com

عودة قابيل

جلس ثلاثتهم أمام محقق الشرطة منكسي الرؤوس دامعي الأعين،
قال المحقق:

«أنا لا أريد منكم سوى أن تجيبوني على سؤال واحد: من قتل
قريبكم الصالح؟...».

أطرق الجميع ولم يجب أحدهم، فتارت ثورة المحقق، وقال غاضباً:
«المجرم واحد منكم، فإما أن يعترف أو تحاكموا جميعاً لتأخذوا
نصيبكم من العقاب».

رفع الابن الأكبر «يزيد» رأسه وقال بصوت خفيض:

«كيف نقتله وهو ابن عمنا وجارنا، لقد تقاسمنا الحياة منذ صغرنا،
فكيف نقتله بهذه الطريقة البشعة؟!...».

قال المحقق ساخراً:

«ابن عمكم وجاركم؟... أين هذا الكلام حين خرجتم إلى الشارع
نساء ورجالاً تتقاتلون؟... ومن أجل ماذا؟... قطعة أرض صغيرة لا
تساوي شيئاً أمام جريمة فظيعة كهذه...».

أجهشت الأم بالبكاء، وقالت:

«لعن الله الأرض والمال، وكل ما يتقاتل الإخوة لأجله، وتسبيل بسببه الدماء، من كان يظن أن عائلة واحدة سيكون فيها قاتل ومقتول... لييتني مت قبل أن أرى هذا اليوم الأسود...».

وارتفع نحيبها، فقال المحقق موجهاً إليها أصابع الاتهام:

«ولماذا لم تحاولي منع أبنائك من التشاجر مع أبناء عموماتهم، وخرجت إليهم تساعدتهم على الضرب حتى وصل الأمر إلى القتل؟؟... الآن تبكين؟؟... بعد ماذا؟؟...».

فقالت صارخة:

«وجدت أبناءهم قد تشابكوا مع أولادي بالفؤوس والحجارة والقضبان الحديدية، فكيف أمنعهم وقد اختلط الحابل بالنابل حتى لم أعد أفرق بين الضارب والمضروب؟؟...».

«لذلك توجهت إلى الصالح، فأغمدت السكين في بطنه بكل قوة فسقط على الأرض ميتاً.. أهذا ما حدث؟؟...».

فقالت باكياً:

«أنا لم أقتله... لم أقتله...».

نظر إلى الأخ الأصغر ذي الستة والعشرين ربيعاً، وقال:

«وأنت يا كمال، شهد بعضهم أنك كنت تحمل سكيناً في أثناء احتدام الصدام مع أبناء عمك، وأنت فاجأت صالحاً بعدة ضربات قوية أردته صريعاً ملطخاً في دماؤه... هل هذا صحيح؟؟...».

رد كمال بانفعال شديد:

«كذب... لم أحمل سكيناً معي، وما دخلت العراق بنية القتل، إنما لألّفتهم درساً لن ينسوه أبداً كلما فكروا في سرقة أرض ليست لهم...».

فقال المحقق موضحاً:

«لكن الأرض أرضهم كما في محضر المخبر القضائي، وأنتم أردتم سرقتها!!...».

فصمت الجميع، ولم يتفوهوا بكلمة، فقال المحقق:

«دعونا من الأرض الآن، ولننتحدث عن الجريمة... يبدو أنكم مصرون على الإنكار؟...».

«حسنًا، ستودعون الحبس الاحتياطي إلى حين استكمال التحقيق، وتأكدوا أننا عندما نحصل على أداة الجريمة سيتضح كل شيء... هيا انصرفوا...».

لم يكن الخلاف حول الأرض مشكلة جديدة بالنسبة لهذه العائلة أو غيرها من العائلات الأخرى، بل كان موضوعاً ممتد الجذور إلى أجيال سابقة، ومع كل جيل كان يكتسي حلة جديدة تختلف باختلاف الأفكار والعقليات وتطورات الحياة، بينما بقي الجوهر واحداً: خلاف يورث في القلوب الحقد والكراهة، وبركان من الغضب المتوارث لا يطفئه غير إراقة الدماء!!!...

كان الصالح شاباً في الثلاثين، وسيم الملامح، بادي الرجولة، كريم الأخلاق، يعمل ممرضاً بمصلحة القرية، عرف بحسن أدائه لمهنته ومساعدته الودودة للمرضى، لم يأبه يوماً لما بين إخوته وأبناء عمومته من خلاف حول الأرض، وما تدخل فيها بعد أن حاول الإصلاح بينهم وفشل، ليدرك أن عقول الكبار المتحجرة وقلوبهم المتباعدة قد توارثها الصغار، وازدادت تمكيناً منهم.

في يوم من الأيام، أسرع إليه بعض جيرانه، وهولاً يزال في المصلحة، قائلين له:

«أسرع يا صالح، للفرقة بين إخوتك وأبناء عمك، إنهم يتشاجرون، وقد يقتل بعضهم بعضاً...».

انطلق صالح كالسهم إلى المنزل بيدلته البيضاء، فوجد أفراد العائلتين متشابكين بالأيدي تسيل الدماء من وجوههم، فدخل وسطهم مع زمرة من الجيران، فلم يستطيعوا الفرقة بينهم إلا بعد جهد عظيم، ولم ينجُ الصالح من ضربات تلقاها على وجهه فأسالت دمه، وتبادل الطرفان نظرات حاقدة قبل أن يدخلوا منازلهم المتجاورة.

جلس الصالح أمام عتبة باب بيته يمسح دمه وعرقه، كان شاردًا يفكر حين خرج يزيد ابن عمه وصديق طفولته من داره بعد أن أصلح هندامه وغسل بقع الدم التي على وجهه، اقترب منه وجلس إلى جانبه دون أن يتفوه بكلمة، وبعد دقائق من الصمت قال يزيد:

«لم أكن أريد أن يتشاجروا، لكن الطاهر أشعل نيران الفتنة وحرّض إختي على الضرب؛ دفاعاً عن حقهم، وانضمت إليه؛ لأفرق بينهم، لكن إختوك لم يمهلوني وأشبعوني ضرباً...».

رفع الصالح رأسه، وقال مستغرباً:

«الظاهر؟... وما دخله بيننا؟...».

«إنه يتودد إلى إخوتي ويكره إخوتك، ربما لخلاف قديم بينكم، لذلك يستغل هذا الوضع؛ ليزيد الأمر تأزماً».

«وما عساه يجني مما يفعله؟...» سأل الصالح، وهو لا يزال على استغرابه.

فقال يزيد متأسفاً:

«هو أيضاً ابن عمنا وله أرض بجوار أرضنا، ربما لديه أطماع أخرى لا يعرفها أحد، فهو رجل خبيث وفاسد القلب والطباع، ولتحقيق مصلحته لا يتردد في فعل أي شيء».

«ألا نستطيع إيقافه عند حده؟...».

«للأسف لا نستطيع، فإخوتي يستشيرونه في كل أمر، بل حتى والداي يعملان برأيه، وبرغم محاولاتي لزجره إلا أنني لم أجنِ غير عداوة الجميع».

كان أبناء العم يسكنون في الشارع نفسه في بيوت متجاورة لم يغادروها أبداً، تقاسموا منذ صغرهم حلو الحياة ومرها، ورضعوا معاً حليباً واحداً وأكلوا رغيفاً واحداً، كانوا يتشاجرون بين الحين والآخر، لكنهم كانوا متحدين أمام ضربات الزمان والأعداء. ولم تمتلئ قلوبهم حقداً ولم يعم عيونهم الكره والغضب إلا حين دخل بينهم رجال السوء

من أقربائهم لغرض في أنفسهم، والطاهر من أشدهم كرهاً لعائلة الصالح وأكثرهم رغبة في الانتقام منهم؛ لاعتقاده أن كل الأرض التي يمتلكونها ملك له وحده، واستولوا عليها بوثائق مزورة.

ذهب إليه الصالح ذات يوم في محاولة أخيرة للإصلاح، فلما جلس إليه بادره بالحديث قائلاً:

«أعرف أن علاقتك وطيدة بعائلة عمي؛ لذلك جئت أستحلفك بالله ألا تسهم في إشعال نيران الخلاف بيننا، وتساعدني للإصلاح بينهم و...».

فقاطعه الطاهر قائلاً في سخرية:

«تلجأ لي أنا لمساعدتك؟! ... يا لسذاجتك!! ... لو كنت تعرفني جيداً لما قصدتني أصلاً...».

«إننا أهل وجيران، فلماذا تفسد ما نحاول إصلاحه؟! ...».

«بل أحاول استرجاع أراضي التي استوليتهم عليها، وبقيتم سنوات تتعمون بخيراتها...».

«لكنها أرضنا ورثناها أباً عن جد وتعرف ذلك جيداً، ولدينا كل الوثائق التي تثبت ملكيتنا، فلماذا تلج على ادعاء ما ليس لك وتسعى لأخذ ما ليس من حقك؟! ...».

فثار غاضباً، وقال والزبد يتطاير من فمه:

«بل أرضي وسأسترجعها مهما كلفني الأمر، وسأجعلكم تدفعون ثمن استيلائكم عليها غالباً».

سأله الصالح بنبرة هادئة:

«إذا كانت مشكلتك معنا، فلماذا تتدخل بيننا وبين أبناء عمنا؟!...».

فقال الطاهر، يتصنع الهدوء:

«لن أحاربكم على جبهة واحدة، بل سأثير ضدكم كل أبناء عمومتنا... سنحاصركم من كل مكان، حتى تعترفوا بما ليس لكم».

«بل قل، حتى نتنازل لكم عن كل أملاكنا؛ تقادياً لمؤامراتكم الدنيئة، ودفعاً لحصاركم المقيت؟»

فرد بخبث وابتسامة مأكرة على شفثيه:

«هذا ما أريده بالضبط... ولن أتأخر عن فعل أي شيء يوصلني إلى هدفي».

هدأت الأوضاع أشهراً عديدة، وعاد إلى ذلك الشارع أمن ظاهر يهدده ما تنطوي عليه النفوس وتقضحه العيون، وانطلق الطاهر في الخفاء كالشيطان المرید يشعل جذوة الخلاف، حين شعر أنها توشك على الانطفاء، وما هي إلا أيام قلائل حتى أثمرت جهوده لهيباً مستعراً أحرق كل أمل في الصلح وجعل الإخوة يتقاتلون من جديد.

لم يصل التحقيق بشأن موت الصالح إلى نتيجة، وبرغم حصول الشرطة على أداة الجريمة - وهي سكين كبيرة وجدت ملقاة فوق سطح المنزل - إلا أن ذلك لم يفد في شيء أمام إصرار المتهمين

الثلاثة على الإنكار. واستغرقت المحاكمة أشهرًا طويلة، وكانت أقوال الشهود في أغلبها تؤكد تورط يزيد حينًا وكمال حينًا آخر، في حين أكد بعضهم أن تشابك أفراد العائلتين وسرعة الأحداث مغرب ذلك اليوم جعل من الصعب التعرف على القاتل.

في اليوم الأخير من المحاكمة، نطق القاضي بالحكم النهائي لهذه القضية المأساوية، فحكم على يزيد بعشرين سنة سجنًا وعلى أخيه كمال بعشر سنوات وتم تبرئة الأم وإطلاق سراحها. وأوشك ملف القضية أن يغلق وترفع الجلسة، حين دوى بالغرفة صوت امرأة اخترقت جموع الحاضرين وطلبت المثل أمام عدالة المحكمة والسماح لها بالكلام:

وبعنين دامتين، وصوت مبجوح بدأت المرأة - وهي فتاة دون العشرين - تسرد ما حدث:

«كنت يومها فوق سطح منزلنا أنشر الغسيل، وعندما انتهيت وقفت كعادتي أنظر من فوق إلى الأطفال وهم يلعبون وإلى بعض المارة، بحيث أرى ولا يراني أحد، فسمعت الطاهر يقول لكمال بصوت مسموع:

«كيف تترك حقلك يذهب سدى؟... لقد حضروا اليوم بئراً على أرضك وينوون إنشاء مزرعة تدر عليهم مالاً وفيئراً، ألسنت رجلاً؟ ألا تدافع عن حقلك؟...».

وما زال به حتى غلى الدم في عروقه، فلما رأى كمال زهيراً - أخا الصالح الأكبر - مقبلاً انقض عليه كالوحش الكاسر، وعلى صراخهما خرج رجال العائلتين واشتبك كل واحد بغريمه يبغي الفتك به، ثم لحقت بهم النساء يصرخن، تحاول كل واحدة منهن دفع الضربات عن زوجها أو

أبيها أو أخيها، ولم أعد أرى سوى قضبان حديدية وهراوات تسقط على الرؤوس فتدميها، ومن آخر الشارع ظهر الصالح يجري نحو الجمعيين محاولاً تهدئتهم وتقريقتهم، لكن أحداً لم يأبه به، فانسحب من المعركة وجلس غير بعيد عنهم ينظر إليه بأسف وأسى. وصرخ يزيد حين تلقى ضربة قوية من زهير، وأوشك أن يسقط، فهرع إليه الصالح يمسكه...».

صمتت الفتاة تستعيد ذكرى تلك الأحداث، ثم واصلت تقول:

«في هذه الآونة بالذات رأيت بأم عيني الطاهر يقبل وفي يمينه سكين كبيرة متوجهاً إلى زهير يبغى قتله، لكن هذا الأخير سقط يتلوى على إثر ضربة تلقاها من أحدهم في مؤخرة رأسه، وبسرعة كبيرة أغمد الطاهر سكينه في بطن الصالح مرات عديدة وعلى غفلة من أعين الآخرين، ثم أسرع بالاختفاء والسكين في يده تقطر دمًا...».

أجهشت الفتاة بالبكاء، ثم أكملت بصوت تخنقه العبرات:

«لن أنسى ما حييت اللحظة التي وضع فيها الصالح كلتا يديه على بطنه، مستشعراً حرارة الدم المنبثق من أحشائه وهول المفاجأة مرسم على وجهه، كان قلبي يخفق بشدة، وأنا أراه يتألم دون أن يصدر منه أي صوت، وبقي واقفاً مشدوهاً لحظات قليلة وأهله حوله ما زالوا يتعاركون، وفجأة سقط على الأرض محدثاً صوتاً قوياً جعل كل الأنظار تتجه إليه، وتفرق المشتبكون مشكلين حلقة دائرية كان جسد الصالح ممدداً يتوسطها... كانت الشمس قد غابت وبدأ الظلام يحل، لذلك ظن الجميع أنه أغمي عليه، فحملوه إلى الداخل، حيث فوجئوا ببقع الدم تلتخ سترته!!...»

حمل بسرعة إلى المصحّة، متبوعاً بأمه وأخواته يندبن ويصرخن،
وهناك أعلنوا موته المفاجئ».

مسحت الفتاة دموعها، وقبل أن تتسحب قالت:

«أقسم لك سيدي، إنها الحقيقة، يزيد وكمال لم يقتلا الصالح،
فهما في أعماقهما يحبانه برغم كل الخلافات، إنما شياطين الإنس
هي التي تنمّت سمومها؛ ليتقاتل الأشقاء...».

سألها القاضي:

«ولماذا لم تدلّ بشهادتك قبل اليوم؟...».

«كنت خائفة جداً، وخاصة أن هناك من رأوا ما حدث، ولكنهم
خافوا، فلم يقولوا الحقيقة برغم أنهم استدعوا للشهادة، فكنت خائفة
مثلهم من المشكلات التي قد تلاحقني».

«وما الذي دفعك إلى الكلام الآن؟».

قالت الفتاة، وهي تشعر ببعض الخجل:

«بقيت أكنم الأمر في صدري طوال الأشهر الأخيرة، وتعذبت بسبب
ذلك كثيراً، وأخيراً قررت مفاتحة عائلتي في الأمر لمعرفة رأيهم،
فشجعوني على قول الحقيقة كاملة كما رأيته؛ لينال المذنب الحقيقي
عقابه بدل هذين البريئين...».

وفكر القاضي ملياً ثم قال:

«هل تستطيعين ذكر أسماء الأشخاص الذين رأوا ما رأيته؟».

«بالطبع، وأنا على يقين بأن الطاهر سيعترف بجريمته إذا حاصرناه بشهادتنا جميعاً».

وهذا ما كان فعلاً، اعترف الطاهر أنه نوى قتل زهير؛ لشدة بغضه له، فلما اختفى من أمامه فجأة قتل صالحاً برغم أنه لا يضر له حقداً شخصياً، إنما لكونه ابن أعدائه كان كافياً لأن يقتله!!...

وأطلق سراح الأخوين البريئين، ونال الطاهر في الحياة الدنيا عقوبة السجن مدى الحياة.

وبقي ذلك الشارع يرتدي السواد، ويذكر المارين به أن قابيل لم يمت، وأن روحه لا تزال تنتقل بين أرواح البشر تزرع الحقد وتحصد الموت.

obeikandi.com

ويورق الأمل

كان التحاقني بالجامعة أكبر وأهم حدث في حياتي كلها، فقد كانت حلمًا من أحلامي وهدفًا لم أتمكن من بذل أي شيء لكي أناله. فهي لم تكن بالنسبة لي مرحلة دراسية تبدأ، ثم تنتهي لتمنحني الشهادة العالية، ولم تكن هذه في حد ذاتها هدفي الوحيد من دخول الجامعة، بل لم أكن أراها إلا أمرًا ضئيلاً أمام ما تحمله نفسي من أحلام، وما يخفيه صدري من طموحات.

كنت أرى الجامعة الجنة الفيحاء والروضة الغناء التي تهفو إليها كل نفس عظيمة تأبى إلا أن تكون بين العظماء، هي حياة جديدة سأحيها وعالم جديد سألج بابه، فيها سأتعلم العلم وأتعلم الحياة أيضاً، في رحابها ستصقل شخصيتي ويتسع أفقي وينضج فكري وتعلو همتي، وأصبح بعد خروجي منها شخصاً آخر غير الذي كان قبل دخولها... لقد عاهدت نفسي على أن أستغل كل يوم من أيامي هناك وكل عام في السعي الدؤوب لا أكل ولا أمل مستمدة إرادتي من إيماني العميق بأن الجامعة هي أجمل مرحلة في حياتي، وأنها زهرة عمري كله.

دخلت الجامعة بأفكاري هذه، فلا عجب أن قضيت كل يوم من أيامي هناك أنهل من بحر العلم حتى الثمالة كظمان لا يرتوي أبداً، فلم

أترك مجلساً من مجالس العلم إلا وحضرته، وما أقيم معرض أو ملتقى أو ندوة إلا وكنت السباقة لحضورها جميعاً، وما وجدت فرصة للسفر إلا وسافرت بنفس ظمأى لاكتشاف ربوع بلادي الساحرة، وعيناي تتلهفان شوقاً لرؤية ما أبدعته يد الخالق من مناظر على هذه الأرض الرائعة. مضت السنوات تبعاً، ولم أستفق إلا والشهادة العالية بين يدي، وإذا أنا في قريتي الصغيرة النائية بعيداً عن الجامعة وعن كل ما يربطني بها.

شعرت بغصة في حلقي وحرقة في قلبي، وأحسست بالدموع تنهمر من عيني وقد مرّ بمخيلتي شريط ذكرياتي بالجامعة، وتذكرت ما كان لي فيها من أحداث.

وضعت رأسي بين راحتي؛ لأخفي دموعي وأكتم أنين نحبي عندما أدركت أن ذلك ماضٍ ولّى ولن يعود أبداً، وأن تلك مرحلة من حياتي انتهت إلى الأبد.

دخلت أُمّي وجلست قربي تمنع النظر إلى وجهي، ثم قالت:

«ما بك سلمي؟! ... هل تشكين مرضاً؟»

فقلت أمسح دموعي:

«لا... لست مريضة».

«فلم البكاء إذاً؟! ...».

يكفي أن يسألني أحد هذا السؤال ليزداد بكائي، ولم أستطع إيقاف انهمار العبرات، فقالت أُمّي وقد هالها أمري:

«أرجوك يا ابنتي، أخبريني ما بك، ولمَ تبكين؟... ألسنت سعيدة بتخرجك؟!...».

فقلت بصوت مبجوح:

«لم أكن أريد العودة إلى قريتي الميتة هذه، ما عساني أفعل هنا غير أن أنضم لقائمة الأحياء الأموات فيها؟!...».

«لكنها قريتك وهنا بيتك وأهلك، ولا بد أن تعودني إليها، ولو طفت العالم بأسره».

«لم أتوقع أن أقضي سنوات الدراسة في مدينة عريقة تنتشر فيها المعاهد والمكتبات ودور الثقافة، حيث الحياة تتجدد مع كل يوم جديد لتمنحني السعادة بالسعي لأنهل من بحر العلم والأدب، ثم أعود في آخر المطاف إلى هذه القرية الميتة، كيف أعيش بين أهلها الذين اعتادوا البساطة في الحياة، والبساطة في الأهداف والغايات؟! كيف أقضي أيامي في هذا المكان الذي يشبه المنفى أو القبر؟!...».

غضبت أمي لكلامي، وقالت:

«كيف تقولين هذا عن بلدتك التي هي مسقط رأسك وشهدت أولى صرخاتك وخطوت عليها أولى خطواتك؟! ثم إننا جميعاً نحيط بك، ألا تقدرين كل هذا؟!...».

فقلت أهدئ من غضبها:

«أقدر كل هذا أمي، وربما هو عزائي الوحيد، لكنني تمنيت لو كنا

نقيم بمدينة كبيرة تسع أحلامي وطموحاتي، إنني أشعر هنا بالاختناق، وأخشى أن تموت آمالي في هذه البقعة وتدفن إلى الأبد».

«إن الله كريم يا ابنتي، وما دام قدّر لك العودة إلى قريتك بعد طول طواف، فلحكمة لا يعلمها إلا هو، وستدركين حكمة الله ذات يوم!!».

كانت أحلامي وآمالي زادي وعطادي، تقنّات عليها نفسي الظمأى وروحي الحاملة، ولم أكن أنظر إلى الحياة بمنظار أغلب الناس حولي ممن يحلمون بالعثور على عمل يرتزقون منه، وبيت يسكنونه، وزوجة وأطفال، فإن كبرت أحلامهم، فإنها لا تعدو أن تكون مالاً وثيراً يكتسبونه ومنزلاً فاخراً يقيمون فيه، وسيارة فخمة يقتنونها وغير ذلك من متاع الدنيا الزائل وبهرجها المزيف.

لم أفرح بالشهادة العالية؛ لأنها لم تكن هدفي، وعندما هنأني الناس حولي لأنني انتهيت كنت في أعماقي أوقن أنني الآن فقط بدأت!!..

لم أَرْضُخ للأمر الواقع أو أقبِل الأمور كما هي، بل بذلت كل جهدي لتغيير وضعي إلا أنني أخفقت في جميع محاولاتي، وكنت كمن يصارع القدر فيصرعه، وأسعى للابتعاد عن قريتي فيدفعني للعودة إليها والاستقرار بها.

مكثت بالبيت أياماً وشهوراً، كان الصراع فيها بيني وبين نفسي نأراً تضطرم بين ضلوعي فتكاد تهلكني، بين رغبتني الشديدة في مواصلة السير في طريق العلم والإبحار في دنيا الأدب، وبين الواقع المحيط بي، المحبط لعزمي، القاتل لآمالي والخانق لأنفاس روحي الحاملة.

كم كنت أخشى على نفسي - إن بقيت في هذا المحيط - أن تنقلص أحلامي فأقتع بما قنع به غيري من حياة مملة رتيبة، وأن أتنازل عن مبادئتي التي آمنت بها، وأتخلّى عن العلم الذي تعلمته بالنسيان أو الإهمال أو سلوك مسلك لم يخطر لي على بال.

لكم خشيت من الأيام والسنوات القادمة أن تجعلني أجهل بعد علم، وأفقر بعد غنى، وأموت بعد حياة!!!...

قضيت مدة من الوقت أسيرة الماضي الذي لم أستطع أن أنساه، وضحية الحاضر الذي لا أريد أن أحياء، وقد استهواني هذا الأسر فتناسيت البحث عن عمل وتمنيت ألا أعثر عليه حتى لا يكبلني بقيوده، واعتقدت جازمة أن القيام بهذه الخطوة رضوخ للواقع الذي أبغضه وقبول للعيش في الحاضر الذي أهرب منه.

لم تدركي أنني كيف تخرجني من قوقعتي، فحدثت أبي وإخوتي بأمرى فقاموا بحملة جماعية لنصحي وإقناعي بغير ما أؤمن به، وبدافع من إلحاحهم الشديد نزلت عند رغبتهم وخرجت أبحث عن عمل في محاولات يائسة، وأدركت بعد أشهر طويلة من البحث المضني أن شهادتي العالية ليست سوى حبر على ورق!!!...

وانضمت إلى قائمة البطالة وما أطولها في بلادي، ووقفت على ما يعانونه من آلام نفسية، وهم ينظرون بسخرية إلى شهاداتهم، تلفحهم رياح سنوات التحصيل والجهد التي زرعوها بعرق جبينهم ولم يحصدوا منها غير المرارة.

وازداد همي بهذا الاكتشاف الجديد لجانب آخر من جوانب

واقعي الأليم، فانطويت على نفسي في عزلي أعيش أياماً بلا غد
أنتظره ولا أمل أرقبه.

غابت إشراقة وجهي خلف سحابة من الحزن، واختفى بريق الحياة
الذي طالما كان يشع من عيني، وفقدت شهيتي، وصاحبني الأرق في
الليالي الحالكة ونحل جسمي حتى أصبحت حطاماً لإنسان كان في يوم
من الأيام شعلة من الحياة نفسها.

ودخلت أمي عليّ ذات يوم وجلست تحدثني في أمور شتى؛ علّها
تعيد البسمة إلى شفتي، وحينما وجدتني أنصت لها ولا أسمع شيئاً،
وأنظر ولا أرى، هزنتي هزاً عنيفاً، وهي تقول:

«ماذا دهالك؟... أي كارثة حلت عليك، فألت بك إلى هذا
المآل؟... كلهم تخرجوا وعادوا إلى قراهم سعداء قانعين بحياتهم،
ولست وحدك من لم يجد عملاً، والحياة مستمرة برغم كل شيء،
أتريدن لنفسك الموت وقد وهبك الله نعمة الحياة؟...».

لم أرد عليها، فقد اختلط كل شيء في ذهني، ولم أعد أعرف
ماذا أريد تحديداً... نظرت أمي في عيني، فقرأت في صفحاتهما قلقي
واضطرابي، فضمتني إلى صدرها كطفلة صغيرة، وقالت:

«ألا تتقين بالله يا صغيرتي؟...».

احتواني دفئها، وتمنيت لو أعود إلى بطنها كما كنت أنعم بالراحة
والأمان، أو أبقى صغيرة لا أكبر أبداً، وأغلقت عيني وهمست أرد على
سؤالها:

«إنني أثق في رحمة الله وقدرته وعدله».

فقالت:

«إذا توجهي إليه بالدعاء، ولن يخذلك أبداً».

شعرت بضعف شديد أعجزني عن الكلام، وارتخت قواي، وذهبت في نوم عميق كمن لم ينم دهرًا.

استرجعت بعض قواي بعد أيام، فجلست إلى مكتبي الصغيرة أنصفح كتب سير عظماء هذا الزمان، وما سبقه من أزمنة، أبحث في حياتهم عن أيام بؤسهم وشقائهم، وأقرأ بشغف ما عانوه أوقات ضعفهم وتخاذل قواهم، وكيف واجهوا الحياة بصبر ويقين، ودافعوا عن أفكارهم ومبادئهم حتى خرجوا من ظلمة معاناتهم إلى نور نصرهم، وهم يبدعون ويكتشفون ويكتبون زبدة خبرتهم؛ ليضيئوا بأنوارها طريق من يأتي بعدهم ممن يحملون نفس روحهم، وقرأت:

«إنَّ الأزيمة تلد الهممة، ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق، ولا يظهر فضل الفجر إلا بعد الظلام الحالك».

وأنشدت:

وأفردت بالألم العبقري وأنبغ ما في الحياة الألم.

وتساءلت: أترأه ألماً عبقرياً هذا الذي ملك علي نفسي وزهدني في كل ما هو حولي؟!...

بقيت أياماً أقرأ، فأزداد ظمأً، وأنام وعلى وسادتي كتاب رسم على شفتي ابتسامة قبل أن أغفو، وأسافر في النهار إلى عوالم أخرى عبر

صفحات الكتب، أعايش أحداثاً وأصحاب أشخاصاً، وأدركت أنني جزء صغير من كل عظيم، وأن معاناتي ليست بشيء أمام ما تعانيه البشرية منذ غابر العصور وسالف الأزمان.

خرجت من عزلتي ذات يوم جميل، وقد رست أفكار المتضاربة على شاطئ السلام، وأشرق عقلي بنور بدد ظلام تلك النار المتأججة في صدري، وشعرت بارتياح عظيم لما وصلت إليه، وكأنني ولدت من جديد.

إن الرصيد الذي امتلكته بالجامعة وأدخره الآن في أعماق نفسي لم يعلمني ازدراء الواقع والهروب من العيش في الحاضر وإن كان أليماً، بل علمني مواجهة هذا الواقع بكل ما يحمله من نقائص، والتأقلم مع الحاضر بقلب مفتوح، وأمل في الغد كبير... إن عليّ أن أدوي ما أجده أمامي من جراح، وأصلح ما ألقاه من فساد، وأدعو إلى كل ما هو خير وأدفع كل ما هو شر.

لقد قضيت سنوات من «الأخذ» في كل مراحل حياتي السابقة وأن الألوان كي أبادر «بالعطاء»، وما أحوج قريتي ووطني كله إلى من يكون نبغاً للعطاء ومورداً للبناء وحاملاً لكل ما هو خير ورخاء.

لأعاود البحث عن عمل، ليس من أجل أن آخذ مقابل عملي مآلاً فحسب، بل من أجل أن أعطي ثمرة ما تعلمته خلال سنوات، ولأواصل السعي لتحقيق أحلامي، وليكن واقعي المر وحاضري الأليم الجامعة الأم التي ستصقل فيها شخصيتي حقاً، ولتكن شهادة تخرجي فيها أكبر من مجرد حبر أسود على ورقة بيضاء، إنها شهادة الانتصار على

كل دواعي الضعف والانهازام، وحجج السقوط والاستسلام. أليست
حياة التحدي من أجل حاضر أجمل، ومستقبل أفضل أعظم انتصار
في هذه الحياة؟...



obeikandi.com

المدرسة البرهومية

كان «سي برهوم» رجلاً في السبعين من عمره، عرف بين أهله وجيرانه ببخله الشديد وحبه العظيم لجمع المال وادخاره دون أن تظهر آثار هذه النعمة عليه أو على آل بيته، كانت له زوجة صالحة صابرة وأولاد عشرة عانوا من بخله الشيء الكثير، فمنذ زفت زوجته إليه وهي في الثامنة عشرة من عمرها، وهو يومها في الثانية والعشرين وهي تعاني معه الأمرين... فما تذكر يوماً أهدى لها فيه هدية أو قدم لها عطية، وما كساها إلا ما يسترها، أو غذاها إلا ما يسد رمقها، وما أسكنها إلا بيتاً صغيراً حقيراً يصيبها الهلع كلما دخلته، فهي حين تجد نفسها داخله تصيبها الدهشة، على أي شيء تطبخ إذا وجدت ما تطبخه؟ وماذا تقترش إذا نامت؟!!... إنه بيت يكاد يكون فارغاً إلا من بقايا أثاث قديم وخرق بالية وأدوات مطبخ صدئة.

واجتهد برهوم في تجارته التي يمارسها حتى نجح فيها، فأغدقت عليه المال الكثير، لكن ذلك لم يدفعه لبسط يده على بيته وزوجته، بل أخذ يجمع ماله ويخبئه أكواماً في علبة اشتراها خصيصاً لهذا الغرض ولا يصرف منه إلا القليل لشراء ما يستر العورات، وما يكفي لطهي لقيمات يقمن صلبه وصلب زوجته.

وجاء الأطفال إلى هذه الدنيا واحداً بعد الآخر، ولم يهش لمجيئهم أو يفرح لمقدمهم، ولكنه لم يكن يمانع في وجودهم، بل كان الجيران والأقرباء يتنافسون من ينجب عدداً أكبر من الذكور!!... فهم لآبائهم مفخرة وأي مفخرة!!...

رزق برهوم سبعة بنين وثلاث بنات، وكلما هلّ بهذه الدنيا أحدهم حارت الأم في أي شيء تتمطه؟ وماذا تطعمه، وهي نفسها لا تجد ما تأكله!

وفي كل مرة يعود زوجها من عمله تطلب منه حاجتها وحاجة أطفالها فيزجرها ويوبخها، وإذا ألحت ضربها وهجرها فتبكي ما شاء لها أن تفعل! ثم تمسح دموعها وتمضي إلى بقايا ملابسها تمزقها لتصنع بها لباساً لأطفالها، وتجتهد لطهي ما يسكت بكاءهم، وهي تدعو الله أن يهدي زوجها، فيعطي لها ولأطفالها بعض حقتهم.

وتمر السنوات، ويكبر الأطفال، فإذا هم في الشارع يمرحون ويلعبون، لا يابھون لأقدامهم الحافية وأجسادهم نصف العارية، فهم لا يلبسون عادة إلا ما يستتر نصف أجسادهم، أما اللباس الكامل فلا يحظون به إلا في المناسبات والأعياد البعيدة، لكنهم كانوا صغاراً يقنعون بالقليل من الطعام واللباس وهمم الوحيد في لعبهم ومتعتهم في جريهم، وكلما تشاجرت الأم مع زوجها بشأنهم يقول زاجراً:

«اتركيهم يتذوقون خشونة العيش ليصبحوا رجالاً، فما ربينا إلا حفاة عراة، وما نحن أصبحنا رجالاً وفتحنا بيوتاً دون مساعدة أحد».

ثم يتابع مهدداً متوعداً:

«إياك وإطعامهم حتى يشبعوا فتتسع بطونهم، ولا نجد ما يملؤها... القليل من الطعام والضروري من الكساء، فهذا أضمن لحفظ المال وعدم تذييره فيما لا ينفع!!...».

لكن الأم - ولأنها أم - لم تكن تستطيع البقاء مكتوفة الأيدي حين لا يجد أطفالها ما يأكلون أو يلبسون، لقد هدتها غريزة الأمومة إلى علبة زوجها، فتأخذ من ماله ما يخفف عنها ألمها بتوفير حاجات أطفالها مكثفية بتلبية الضروري منها، وهي ترتجف من الخوف، ليس من زوجها البخيل القاسي فحسب، بل من عقاب الله!!...

وما إن كبر الأطفال ودخلوا المدارس واحداً بعد الآخر حتى من الله عليهم، فهدى والدهم الشيخ الذي استفاق فجأة من سبات بخله العميق فبنى لهم بيتاً في مكان آخر أكثر اتساعاً ورحابة وما لبث الجميع أن انتقلوا إليه فرحين بهذا الفتح العظيم بعد ذلك العذاب المهيّن.

لكن الأب عاد إلى سابق عهده، فألقى بنفسه مرة أخرى في أحضان بخله يتعبد كل مساء بجوار علبته يعد دراهمه ويعيد عدها، شاعراً بنشوة لا تضاهى وفرحة لا تعادلها فرحة وهو يرى ماله يزداد وعلبته تمتلئ ولا تفرغ وقد أغلق الباب على نفسه بالمفتاح؛ حتى لا يقطع عليه أحد خلوته، وزوجته وأولاده خلف الباب يلعنون البخل والبخلاء!!...

في كل مرة يدخل سي برهوم بيته يجد أولاده فيه بين رائح وغاد، فيصيح فيهم مهدداً متوعداً:

«ألم أقل لكم ألف مرة: ألا تبذروا الماء ولا تكثرُوا إنارة الكهرباء... مالكم لا تسمعون ولا تنفذون!!... من سيدفع ثمن كل هذه الفواتير، أم تفضلون أن أقطع عليكم كل شيء!!...».

ويمر عليه أولاده غير مكترئين لتهديده ووعيده وهم يتهامسون ويتضاحكون:

«ألف مرة فقط!!!... إن هذه الجملة نسمعها في اليوم الواحد عشرات المرات منذ سنوات، ولا يمل من تكرارها... لو قطع عنا كل شيء لارتاح وأراح!!!...».

وأقبل على زوجته في المطبخ، فوجدها كعادتها تعد الطعام يساعدها بناتها، جلس على كرسي يلهث من فرط الصراخ، ثم قال وهو يوجه إلى زوجته نظرة شزر:

«ألم أقل لك: ألا تكثري من وضع الزيت في الطعام، فالتقليل منه يكفي ويفيد والكثير منه يضر... الزيت غال جداً في الأسواق، فاقتصدي يا امرأة، ولا تبذري!!!...».

نظرت إليه زوجته غاضبة، وقالت في سخرية:

«الزيت فقط!!!... أخجلت من ذكر كل ما تريدنا أن نقتصد في استعماله؟... كل ما تدفع فيه ديناراً واحداً من مالك تعدّه غالياً، هل تريد أن نعيش هكذا دون أن ننفق شيئاً؟...».

فقال صارخاً في وجهها، وقد انتفخت أوداجه:

«اصمتي ولا تكثري الكلام، فإن ثرثرتك تصم الآذان، بالطبع تتحدثين ما دمت لا تدفعين من جيبك... كل شيء يخرج من جيبى أنا... أنا من يدفع فقط!!!...».

«يا رجل، ماذا دهاك؟.. هذا بيتك وهؤلاء أولادك، من ينفق عليهم ويعولهم غيرك؟ شئت أم أبيت فأنت مطالب بالإنفاق عليهم ما داموا صغاراً، فإذا كبروا وعثروا على عمل تحملوا حينها مسؤولية أنفسهم».

فزأر في وجهها، وقال:

«سئمت منكم، ومن المصاريف التي لا تنتهي، سئمت منك ومن أولادك وهذا البيت أيضاً... يا إلهي أين المفر؟!..».

تملكها العجب من قول زوجها - وهي دوماً تتعجب لأقواله - وردت عليه، وهي تنظر إليه نظرة إشفاق:

«أين المفر؟!... والله أنا لا أدري لماذا تزوجت وأنجبت، وأنت غير قادر على تحمل هذه المسؤولية؟ وإذا كنت لا تحب إخراج دينار واحد من جيبك فلماذا لم تبق أعزب وحيداً تتشغل بجمع المال عن أي شيء آخر في الدنيا ما دامت هذه متعتك الوحيدة... اتق الله فينا يا رجل، وارحم نفسك وارحمنا من هذا العذاب...!!».

وكل مرة يصل النقاش الحاد إلى طريق مسدود، ويخرج سي برهوم من البيت هائماً على وجهه، أو يدخل غرفته يمارس طقوسه التعبدية فيها!! ثم ينام فرحاً بما خبأه من مال، حزيناً لتبذير زوجته وأولاده! وكذلك ظل برهوم يصرخ في أولاده ويحاسبهم عن كل شيء فعلوه حتى كبر الأطفال وتشعبت بهم سبل الحياة وأصبحوا رجالاً، ودخلوا ميدان العمل فشعروا بنشوة الانتصار على أبيهم والتحرر من القيود التي لفها حول رقبتهم طوال حياتهم السابقة.

ومرض الشيخ برهوم مرضاً ألزمه الفراش، وطاف حوله طيف الندم على ما فرط في حياته وجمع أولاده وهو على فراش الموت ينصحهم قائلاً:

«إياكم أن تسلكوا طريقي وتتبعوا أثري... لقد قضيت حياتي أجمع المال وأدخره وأحسب ألف حساب قبل أن أخرج ديناراً من جيبي... لم أعط لأكم ولا لكم حقكم في حياة رغبة كريمة، حرمتكم وحرمت نفسي من كل شيء ولم أتصدق من مالي إلا قليلاً... وماذا كانت النتيجة؟!... هأنذا على حافة القبر مريض عاجز مالي الكثير أن يعيد لي صحتي وشبابي ولا أقوى حتى على تصحيح أخطائي والتكفير عن ذنوبي... لقد فات الأوان... ما أشد وحشة قبري وظلمته ويا لخوفي حين يعدبني ربي بمالي الذي ادخرته ولم أصرفه فيما يرضيه وينجيني!... خذوا من مالي وتصدقوا به؛ عسى أن يغفر لي ربي بعضاً من ذنوبي...».

ولم تمض أيام قليلة حتى ضم سي برهوم القبر تاركاً وراءه ثروة هائلة لم يلبث أبناؤه أن تكالبوا عليها، واقتسموها فيما بينهم بعدما أوشكت نار الفتنة والطمع أن تذهب بما بينهم من أواصر الأخوة ورابطة الدم.

وتزوج الأبناء واحداً بعد الآخر، واستقلوا ببيوتهم وعائلاتهم وأقامت الأم مع أصغر أبنائها في بيتها بعد أن زوّجته هو الآخر؛ لترتاح من عبثهم...

وتمر السنوات ليمتلئ البيت بالأطفال وتنتشر بين أرجائه حيوية السنين الغابرة وضوضاؤها، ولا حظت الأم ما طرأ على تصرفات ابنها

من تغيير، إنه يضيق الخناق على أسرته ويحاسبهم على كل دينار يصرّفونه، ويحرمهم كثيراً من نعم الحياة برغم تيسر أموره وغناه، فطلبتّه ذات يوم في غرفتها وأجلسته إلى جانبها، ثم قالت وعيناها في عينيه:

«ماذا حل بك يا بني؟! ... ما كل هذا التغيير في تصرفاتك؟...».

فقال الابن، وهو لا يكاد يفهم شيئاً:

«ماذا تقصدين يا أمي؟!».

«إنني أرى في عينيك صورة أبيك - سامحه الله - في جشعه وحبّه للمال...!».

«أمي، أرجوك، إنني...».

«لا تقل شيئاً بلسانك فأعمالك تتحدث عنك... أنسيت ما قاسيته أنت وإخوتك مع والدكم من فاقة وحرمان وهو يملك المال ويدخره أكواماً... أنسيت نقمتكم عليه حين حرمكم من أدنى حقوقكم وأذاقكم ذل الحياة ومهانة العيش!!...».

«إنني لست كأبي، ولا يمكن أن أكون مثله..».

«ولماذا تعذب زوجتك وأطفالك وتضيق الخناق عليهم وأنت ولله الحمد ميسور الحال لا يعوزك المال..».

«إنني أفعل ذلك؛ تحسباً للمستقبل وحتى أضمن لهم حياة كريمة حين يكبرون...».

فقات الأم ساخرة:

«سبحان الله... إنها كلمات أبيك نفسها التي ظل يرددها على مسامعي وأنتم صغار تعانون... صحيح من شابه أباه فما ظلم...»
 «لكنك يا أمي، لا تعلمين أننا نعيش في زمن صعب وإن لم نتقشف في المصاريف ونشد الأحزمة فسنضيع حتماً... لا بد أن نتصرف بحكمة ونتقشف في حاضرننا؛ لننجو من شبح الفقر في مستقبلنا...»
 فردت الأم، وقد أصابتها الدهشة لتطابق كلام الابن مع كلام الأب الراحل:

«الخائف من الفقر في فقر يا بني... اسمعني يا ولدي، إن الله هو الذي يرزق ويبارك في الرزق، فتصدق من مالك وأنفق على أولادك تعيش هانئ البال مطمئن الفؤاد، وعش يومك وتدبر أمر مستقبلك، ولكن دون جشع أو طمع أو لهفة وتذكر نصيحة والدك قبل موته، فإنني أراك والله تحذو حذوه فتندم أيضاً حين لا ينفع الندم».

وعبثاً حاولت تغيير نظرته للأمور، فقد كان متمسكاً بآرائه تمسك والده بها فتركته وشأنه، وهي تدعو الله له بالهداية والصلاح.

وشدد الابن الخناق على أسرته أكثر، وأنقص في المصاريف حتى لم يجد أهل البيت ما يأكلونه، وعاد أحد أطفاله من المدرسة باكياً، حين تمزق حذاؤه في قدمه ولم يجد ما ينتعله، ولم تطق الزوجة صبراً فتشاجرت مع زوجها شجاراً عنيفاً وسمعتة أمه يقول لزوجته غاضباً والزبد يتطاير من فمه:

«قلت لك ألف مرة إياك وإطعامهم؛ حتى يشبعوا فتتسع بطونهم ولا نجد ما يملؤها،... القليل من الغذاء والضروري جداً من الكساء يكفي، فهذا أضمن لحفظ المال وعدم تبذيره فيما لا ينفع!..».

ضاقت الأم ذرعاً بولدها، فقررت زيارة بقية أبنائها بالتناوب، حتى يذهب ما بها من قلق وضجر، وبدأت رحلتها لبيوت أبنائها، فإذا بها لا تقيم عند أحدهم أياماً حتى تكتشف فيه من البخل والتقصيف ما تركته وراءها، وبدأت أكثر صمتاً وتفكيراً وهي ترحل من دار لتحل بدار أخرى وفي نفسها مرارة وألم للحال التي وجدت عليها أبنائها.

مرت أشهر عديدة عادت بعدها إلى بيتها وهي تزدد صمتاً، واعتزلت في غرفتها تصلي وتدعو، والدهشة تملأ نفسها من كل ما رآته وعاشته.

وذات يوم طلبت الأم كل أبنائها، واجتمعت بهم في غرفة الاستقبال الفسيحة واشترطت ألا يحضر أحد غير أولادها، وبعدما أخذوا مجالسهم نظرت إليهم في إشفاق، ثم قالت والأسف بادٍ على وجهها:

«اعتقدت أن والدكم حين مات أخذ معه بخله وتقصفه وزال معه ضيق الحال ومرارة العيش وقد ترك وراءه ثروة أغنتكم جميعاً... اعتقدت أن معاناتكم في صغركم بين يدي أب جشع لا همَّ له في الحياة غير جمع المال وتكديسه سيجعل منكم رجالاً أشداء على الحق تحاربون ما تذوقتموه من ألم وحرمان، وأنكم ستتنصفون بالكرم والبذل لأهاليكم وذوي الحاجة ممن حولكم... لا أكاد أصدق أنكم أصبحتم نسخاً من أبيكم تدعون إلى ما كان يدعو إليه، وتعيشون حياتكم كما كان يعيشها وتعذبون أطفالكم كما عذبكم هو من قبل...».

وسكنت لحظة تمنع النظر إلى وجوههم التي بدأ العرق يتصبب عليها؛ خجلاً من حديثها، ثم استطردت تقول:

«ألم تعتبروا من موت والدكم؟ أنسيتم نصيحته لكم، وهو على فراش الموت؟ ألا تدركون أنكم أصبحتم مثله تماماً؟... إنني أسألكم سؤالاً واحداً: لماذا سلكتم هذا السبيل المظلم؟... لماذا تحرقون فلذات أكبادكم بالنار التي احترقتم بها قبل سنوات؟...».

وتبادل الأبناء النظرات، ولم يدرك أحدهم بماذا يجيب!! وعم الغرفة صمت رهيب لم يقطعه إلا كبيرهم، وهو يقول:

«لا تلومينا يا أمه، إننا تجرعنا تربية أبينا قطرة قطرة ويوماً بعد آخر، فربما ترسخت في أعماقنا تصرفاته وسرت مع دمائنا أحاديثه وتهديداته والتحمت بأجسادنا سلوكياته، حتى أصبحنا نفعل فعله ونقول قوله دون أن ندرك ذلك...».

فصاحت الأم في وجهه:

«لكنكم دخلتم المدارس وتعلمتم مكارم الأخلاق، وعرفتكم الحق من الباطل... لماذا تسلكون طريقاً لا يرضاه الله ولا يرضي خلقه، وأنتم تعلمون نهايته في الدنيا وعقابه في الآخرة، لماذا؟...».

وأطرق الجميع في صمت، وكلام والدتهم يذق مسامعهم ويهدم أسرار بخلهم، ونهض أصغرهم - وكان خفيف الروح محباً للدعابة - وقال وهو يمسك رغبته الجامحة في الضحك:

«من قال: إن أبانا قد مات؟... إنه لم يمِت أبداً، فهو حي في أعماقنا بالمبادئ التي غرسها فينا... يا له من رجل عظيم حقاً!!...».

لقد سَخَّرَ حياته يغرس مبادئ البخل والتقشف ويعطينا الدروس عن هذا العالم الرحب من حياة التعبد في محراب الدرهم والدينار... إنه مات دون أن يعلم أنه أرسى قواعد مدرسة ستكون ذائعة الصيت في البخل والبخلاء وسنسميها من الآن. (المدرسة البرهومية)!! ولنكن نحن أول دعاةها؛ لينضم إلينا كل بخلاء الدنيا...».

وأطلق ضحكة مدوية في الغرفة وتبعه إخوته يضحكون ويصفقون على خطابه الذي ألقاه، وهم يؤيدون فكرته ويهللون لعبقريته.

وجدت الأم نفسها تنظر إليهم ذاهلة، وقد تعالت أصواتهم وتلاحقت ضحكاتهم، ودون أن تشعر ابتسمت لتصرفهم ثم بدأت تضحك هي الأخرى كأنها فهمت مرادهم، وتغير ما كان بتلك الغرفة من صمت وكآبة إلى قهقهة وضحك متواصل.

obeikandi.com

مأساة

خطبت كما تخطب كل فتاة، وتزوجت كما تتزوج كل امرأة، لكنها لم تهنأ بزواجها ولم تسعد به، بل كان دخولها القفص الذهبي فاتحة لعهد التعاسة والشقاء.

كانت «كريمة» فتاة متوسطة الجمال، دون العشرين، ولدت ونشأت في الريف نشأة ساذجة، لم تطأ قدمها المدرسة، ولم يكن عملها يمتد أبعد من قريتها. قضت طفولتها ترعى الأغنام كسائر أطفال سنها، وتمرح في المزارع الشاسعة لا يحد من حريتها شيء، فلما شبت قررت في بيتها تخدم والديها وإخوتها وتنتظر فارس الأحلام الذي سيطيّر بها بعيداً؛ لكي تبدأ المهمة التي ترددتها أمها على مسامعها.

في بيتها الجديد الكائن بقرية أخرى مجاورة لقريتها، تعرفت إلى عائلتها الثانية، وأول فرد عرفته ليلة زفافها كان زوجها «حسين»، شاباً في الثامنة والعشرين من عمره، وهو فلاح يعمل في أرض أبيه ولم يعرف المدرسة أيضاً ونشأ وسط أمه وأخواته البنات بعدما قضى أبوه نحبه في حادث.

عاملها بلطف فلم تنفر منه، وسعدت به زوجاً تشاركه حلو الحياة ومرها.

في اليوم المقبل لزفافها جلست إليها حماتها الحاجة «الطاوس» تتودد إليها وتقاسمها الحديث وهي لا تتوقف عن النظر إلى وجهها ولمس ذراعيها وفخذيها كأنها تتأكد أن الزوجة التي حظي بها ابنها لا ينقصها لحم أو شحم!!... وأنها مقبولة الشكل، موفورة الصحة تقوى على عمل البيت الكثير، وتحمل متاعب الحمل والولادة!!...

جلست بنات الحاجة الطاوس مع العروس الجديدة بعدما وضعن قهوة الصباح على مائدة ملأتها بشتى أنواع الحلويات، أطلقت إحداهن زغرودة طويلة أتبعتها بقولها:

«مبارك عليك يا عروسة... يا زوجة أخينا الحبيب».

فردت كريمة في استحياء:

«بارك الله فيك... وسنفرح بكن إن شاء الله».

لم تلفظ هذه الجملة حتى تناقلت الأخوات الثلاث نظرات ملتبهة كأن مساً أصابهن، وقالت الأم ترمق بناتها بنظرات لها معنى:

«إن شاء الله يا ابنتي».

«زينب» كبرى البنات، في الأربعين من عمرها، لم يخطبها أحد منذ سنوات، ولفرط حلمها بزواج لم يتحقق وطول انتظارها دون جدوى أصبحت عصبية المزاج، دائمة الحزن والغضب، لا يعجبها شيء حتى أصبح أفراد أسرتها لا يطبقونها ولا يحدثونها إلا قليلاً.

«دليلة» في السادسة والثلاثين، تردد الخطاب على بابها طويلاً، فكانت ترفض هذا وذلك حتى فاجأتها العنوسة دون أن تدري، وبرغم

تقدم عمرها إلا أنها لم تفقد الأمل في عريس يطرق بابها ذات يوم قبل أن يندثر طيف جمالها، وأهم ميزة تميزها غيرها الشديدة من بنات جنسها، ربما أنشأتها ثقتها بنفسها وغرورها بجمالها، فإن التقت بمن هي أجمل منها أو تزوجت قبلها تضطرم نار الغيرة في قلبها، فتدفعها إلى الكيد لها وحبك الخطط للإيقاع بها، وهذا ما استشعرته تجاه زوجة أخيها.

أما «سامية» فهي في الثانية والثلاثين، لا تحب أحدًا سوى نفسها، تجددها حيث مصلحتها وتدير ظهرها لكل شيء لا فائدة منه، إن بدت ودودة طيبة، فاعلم أن لها حاجة عندك، فإن قضتها مرت كأنها لا تعرفك!!

أما العجوز الطاوس فلم تكن منصفة، تعيش بعاطفتها أكثر من عقلها، فهي تؤثر «حسينا» على بناتها فجعلت منه سيد البيت وهن إماؤه يخدمه ولا يرفض له طلبًا، وتؤثر بناتها على كل غريب، وبرغم فرحتها الظاهرة بالعروس إلا أنها تشعر في دفينة نفسها ببعض الكره لها؛ لأنها أخذت منها ولدها. كان يلزم كريمة بضعة أشهر لتكتشف كل هذا عن أفراد عائلتها الجديدة، ولتدرك أنها بزواجها دخلت حربًا ضروسًا مع أهل زوجها اللائي جهرن بكيدهن وأظهرن حقدهن.

أوكلت أغلب الأعمال المنزلية إلى كريمة، تقوم بها في صمت، باذلة جهدا لإرضاء حماتها وأخوات زوجها، لكنها قوبلت بنظرات باردة تتبعها همسات وحركات تشعرها دومًا أنها غريبة. هي أشبه ما تكون بحرب باردة لم تتحول إلى ساخنة إلا بعد مرور عام على زواجها، إذ لا

يمر يوم دون أن تنشب معركة مع إحداهن تبدأ بالنظرات والكلمات وتنتهي بالكلمات والضربات!!..

دخل «حسين» ذات يوم إلى البيت مرهقاً، فاستقبله صراخ النسوة وضجيجهن، وما إن رآته زوجته حتى أسرع إليه تحتمي به، وعيناها منتفختان يفيض الدمع منهما، فقالت باكية:

«أنجدي يا حسين... تكاد أخواتك يجهزن علي... انظر ما فعلته بي أختك دليلاً...».

وأشارت إلى بقع زرقاء على وجهها، فاقتربت أمه وقالت بأسى:

«هي التي اعتدت على أختك وعيرتها بالعانس، وعندما أردنا تهدئتهما هجمت علي وأرادت أن تضربني...».

واستدرت عينيها فأكرمها بدموع غزيرة، ورفعت صوتها بالنشيج قائلة:

«تريد زوجتك أن تطردنا من البيت؛ لتمتلك كل شيء مثلاً امتلكك... أيرضيك أن تذلل أمك في شيخوختها وأخواتك، وهن في أمس الحاجة إليك؟ لا بد أن توقفها عند حدها قبل أن يستفحل خطرهما في هذا البيت».

وانضمت أخواته إلى أمهن يلفقن الأكاذيب، حتى امتلأت نفسه غيظاً، ودون أن يستمع لزوجته انهال عليها ضرباً صارخاً في وجهها والزبد يتطاير من فمه:

«إياك أن تتعرضي لأمي وأخواتي بسوء، لَنْ تتالي غير الضرب إذا اشتكين منك، هل تسمعين؟».

وانصرف هارباً من الجحيم الذي استقبله، فتغص عليه عيشه.

كان مجيء الطفل الأول أكبر عزاء لكريمة، حمل لها السعادة التي حرمت منها وأشعرها وجوده بالقوة والأمان، لكن زوجها لم يظهر حباً لابنه ولم يغير من معاملته القاسية لها، وأتبع طفلها بآخر؛ عسى أن تزول الغشاوة عن عينيه ويحب طفليه، لكنه تمادى في قسوته وأصبح لا يأبه بها أو بولديها، فكانت تدخل إلى غرفتها وتضم طفلها إلى صدرها، وهي تشمر بالخوف، وقد مات كل أملها بموت قلب زوجها.

وفاضت الكأس ذات يوم إثر شجار عنيف أشعلت جذوته زينب بغضبها الأعمى، وألهبت ناره دليلاً بغيرتها المدمرة، وعززت لهيبه سامية بأنانيتها المفرطة، فحملت كريمة طفلها مذعورة وخرجت كالمجنونة تجري على قدميها قاصدة بيت أهلها، قبل أن تأتي نار الفتنة المندلعة هناك عليها فتحرقها.

استرجعت أنفاسها ببيت أهلها، وشعرت بالحمل الثقيل يخف عن كاهلها حين أفرغت ما بصدرها، ولم تجد بداً من المطالبة ببيت يضمها هي وأولادها عساها تجد فرصة لإصلاح ما فسد، وإذا لم يحقق زوجها مطلبها، فالطلاق أهون عليها من حياة الجحيم تلك.

مرت أيام وأسابيع دون أن يسأل عنها أو عن ولديه، وملأتها الدهشة كيف لا يأبه بأمر ولديها، وكيف تزوجت برجل يحمل في صدره قطعة من الحجر، ولا يحمل في موضعه ذلك قلباً ككل البشر!!...

وحظيت كريمة في بيت أهلها بالرعاية والحنان، وأحاط بها إخوتها يلبون رغباتها ويلعبون مع الطفلين في سعادة غامرة، فأنساها ذلك بعض ما عانته هناك.

زارها ذات يوم، وقد لبس على وجهه قناع الندم على ما فات والرغبة الصادقة في إصلاح ما هوات، وأظهر قلقاً عليها وعلى ولديه واعتذر على معاملتها القاسية وأقسم لها إن عادت أن يبدأ معها عهداً جديداً. صدق الأهل حديثه، أما كريمة فصممت على مطلبها في الاستقلال ببيت خاص بعيداً عن جو الحقد والحسد والمؤامرات الدنيئة، وقال الزوج بوقار الرجل المسؤول:

«عودي فقط إلى البيت، وسأسعى منذ الآن لإيجاد مسكن منفصل، وربما ساعدنا محصول هذا العام على بناء بيت لنا على أرضنا، بعيداً عن بيت أسرتي... كل هذه الأمور سنناقشها لاحقاً، المهم الآن، عودتك للبيت...».

كان يتذلل في حديثه ويتوسل إليها، وبرغم أن قلبها يحدثها بكذبه وعدم صدق نواياه إلا أنها لم تجد بداً من العودة أمام إلحاح عائلتها بالعيش مع أولادها في كنف زوجها.

وما هي إلا أشهر قليلة حتى بدأ جنين آخر يتحرك في أحشائها وآلمها ألماً شديداً، إذ كشف زوجها القناع عن وجهه وعاد إلى سابق عهده، يصدق أكاذيب أخواته وأمه فينهال عليها ضرباً كل يوم، وتصبر حتى تعجز عن الصبر فتحمل ولديها، وتفر إلى أهلها ثم يرجعها مرة أخرى بعد تمثيل دوره البارع ويقسم إنه تغير لتتكرر الأحداث نفسها في كل مرة بمرارة تزداد يوماً بعد آخر.

كانت كريمة غاضبة في بيت أهلها، حين شعرت بآلام المخاض، ونقلت إلى المستشفى لتضع مولودها بعد أيام، لم يأتِ حسين لزيارتها إلا بعد شهرين من وضعها، جلس قربها لحظات، ثم نهض مسرعاً كمن لدغته أفعى، قائلاً:

«جئت أخذ الصغير؛ لتعتني به أُمِّي وأخواتي لحين خروجك من المستشفى».

ذعرت حين سماعها قوله، وضمت طفلها إلى صدرها، وقالت:

«لا...! لن تأخذه مني أبداً... سيبقى معي وسنخرج من المستشفى معاً».

ابتسم بخبث واقترب منها حتى أوشك أن يلامس وجهها برأسه وهمس في أذنيها:

«من الأفضل أن تعطيه لي الآن إن كنت حريصة على رؤية طفليك الآخرين...».

فصرخت في وجهه:

«إنهما مع أهلي، إياك أن تأخذهما».

فابتسم ابتسامة مأكرة، وقال:

«لقد أخذتهما منذ أسابيع، لا تتسي أنني أبوهما، والأولى أن يكونا معي في أثناء غيابك».

شعرت بالألم يعتصر قلبها، وقالت بنبرة حزينة:

«ماذا تريد مني؟...».

«الطفل... أريد أن يتربى مع أخويه، وإن أردت رؤيتهم فعليك أن تعودي للبيت...».

«وإن لم أفعل!..».

«لن تري طفليك الآخرين أبداً...».

صرخت في وجهه، قائلة:

«أعد إلي أطفالتي وطلقني... أنت لا تستحق أن تكون أباً...».

لم يأبه بكلامها، وقال:

«لن أطلقك أبداً، ستعودين لرؤية أطفالك الثلاثة وحينها سيكون لي تصرف آخر معك».

وبحركة سريعة أخذ وليدها من يدها، وهي شاحصة العينين كالمخدرة، وخرج كاللص تاركاً وراءه أمماً غارقة في دمعها، وقلبها ينزف بين أضلعها.

عادت كريمة إلى بيت أهلها، وقد صممت هذه المرة على الطلاق، وأرسلت في طلب أبنائها فرفض، طالباً عودتها، فلم تهتدِ إلى حل آخر غير رفع قضية بالمحكمة، لكن أهلها عارضوا فكرتها وألحوا عليها أن تصبر، إذ ستنقل تربية الأطفال على كاهل زوجها، فيجبر على فتح بيت مستقل يجتمعون به، ولم يقدر أحد أن كريمة أم لا تطلب شيئاً في الدنيا غير أن تربي أطفالها في حضنها.

مرت الأسابيع دون أن يظهر في الأفق ما يبشر بالخير، وأمام آلام قلبها الجريح والحاح أمومتها الدافقة قررت الرضوخ لمطلب زوجها والعودة لبيتها، إلا أن أهلها رفضوا بشدة... لقد خرج الأمر من يدها، وأصبحت المسألة عنادًا وتشبث كل طرف برأيه.

في تلك الأيام بدت شاردة الذهن، مشتتة الأفكار، قليلة الكلام، تنزوي بمفردها في مكان بعيد بين الأشجار الباسقة لا تفكر إلا في أطفالها. وتجلس أمها قربها، قائلة لها في إشفاق:

«اصبري يا ابنتي، سيعيد لك إخوتك أطفالك دون أن تعودى لذلك الوحش الذي حرمك من أدنى حقوقك... لا تبتئسي يا كريمة، فرحمة الله واسعة».

وتعجب كريمة كيف لا يفهمها أهلها... ألا يدركون أنهم يذبحونها حين يطلبون منها الصبر، وهي بعيدة عن فلذات كبدها؟!... كيف تصبر أم على فراق صغارها؟!... إنها لتفكر في ابنها الرضيع الذي لم تهنأ به إلا أيامًا قليلة، يطلب قطرات لبنها بصراخه المتواصل، ويرنو بعينييه البريئتين، باحثًا عنها فلا يجدها... يا لتعاستها وتعاسة أطفالها وسط قوم لا يفهمون!...

تمضي الأيام على كريمة، وهي شاخصة ببصرها في السماء تضم يديها إلى صدرها كأنها تضم صغارها، وتجلس بين الناس، فإذا بها غائبة عنهم لا تفتح شفيتها بكلمة، وإذا نطقت همهمت بكلمات غير مفهومة، وهمس الزائرون حولها: لقد جنت كريمة!...

لم يستطع أحد أن يعيد إليها عقلها الغائب، وابتسامتها التي أخفتها غيوم كثيفة من الحزن والتعاسة تمطر دموعاً غزيرة ونحيباً أشبه بعويل الثكلى.

أشفقت عليها إحدى أخواتها المتزوجات، فأخذتها إلى بيتها الكائن بالمدينة؛ علها تنسى ما ألم بها، لكنها بقيت على حالها صامتة، حزينة، منكسرة، لا تعي ما يحدث في عالمها الخارجي، بينما تقف مع أطفالها في عالمها الداخلي لا يغيبون عن خيالها لحظة واحدة.

أقبل زوج أختها ذات يوم، حاملاً قارورة صغيرة أخبر زوجته عن خطورة محتواها، وسارع بإخفائها في مكان لا يصل إليه أولاده، لكن كريمة التقطت كلماته، واستطاعت يدها أن تصل إلى ما أخفاه... وبعيداً عن أعين الجميع أفرغتها في جوفها؛ علها تطفئ النار التي بداخلها!!!...

حملت على جناح السرعة إلى المستشفى، ولم يستطع الطب إنقاذها، وقد تأكل كل شيء داخلها بفعل ذلك السائل المميت. ولفظت أنفاسها الأخيرة بعد معاناة مريرة وصورة أطفالها الثلاثة بين عينيها وأصواتهم تتردد على أذنيها.



النزيف

أشرقت شمس ذلك اليوم على «علي» وهو يغادر المصححة النفسية التي التهمت بعض سنوات عمره الحزينة، ووقف خارج أسوارها يتأمل زرقة السماء، ويملاً رثيته بنقي الهواء وهو يشعر بالحرية تحرك نفسه الميتة كأنه خرج من سجن مظلم لم يلاق فيه غير العذاب والألم. وظل في وقفته زائغ النظرات يفكر:

«إلى أين أمضي، ولا أهل لي أو صديق؟... هذه سنوات عدة وأنا في هذا المكان البائس لم يسأل عني أحد... وهل بقي على الأرض من يذكرني بعد الذي حدث؟...».

واشتعل الحنين فجأة في نفسه، فتحركت قدماه يتبعها جسده الواهن، حتى وصل المدينة الصاخبة ثابت الأقدام متقد النظرات، وأكمل السير إلى محطة الحافلات، فركب إحداها ببقية مال سلمها له بعض المحسنين في المصححة. أمام النافذة جلس يرقب المدينة الكبيرة، وهي تخفي عن ناظره، وودعها بدموع ساخنة، ليس حزناً على فراقها أو أسفاً لوداعها، وإنما ذكرته بذلك اليوم الذي جيء به إليها منذ ثماني سنوات، وفي أي حال كان عليها.

ألقى رأسه على المقعد، فالتريق إلى وجهته لا يزال طويلاً، وعبثاً حاول إبعاد طيف الأحداث الماضية كلما أغلق عينيه، ففتحهما باذلاً جهده؛ كي لا تستولي ذكريات الماضي على حاضره، فيفقد توازنه وتتدهور حاله.

توقفت الحافلة في مكان يعرفه جيداً، فهبط وقد سرت الدماء في عروقه وعلت الابتسامة محياه حين رأى بعض المنازل المتباعدة وسط أراضي زراعية شاسعة... إنها قريته التي نشأ فيها وتربى في أحضانها، لا بد له من السير واختراق تلك الحقول؛ حتى يصل بيته... هو بيت بسيط ككل بيوت الفلاحين، مبني بالحجر والطين، يحيط به فناء كبير، حيث خصصت أماكن لقطعان الغنم وبعض البقرات والدجاج تحرسها كلاب وفيه. يحيط بالبيت أشجار عالية تخفيه عن باقي البيوت الأخرى، وفي ركن منه توجد بئر هي مورد الماء الوحيد لكل فلاح... كم حذره والداه من الاقتراب منها، وكم كان يحلوه ولإخوته اللعب قربها واختلاس النظر إلى مائها الرقراق ورمي أحجار صغيرة داخله؛ ليستمتعوا بذلك الصوت الجميل الذي تحدثه عند ارتطامها بالماء.

ترى كيف حال داره الآن بعد سنوات الغياب هذه؟!

دق قلبه بين جوانحه حين بدا له بيته من بعيد، فجرى لاهثاً؛ لكي يصل إليه، ووقف برهة قبل أن يدخل، إن الهدوء يعم المكان كهدهوء تلك الليلة البعيدة... تردد في دفع الباب وتخاذلت قواه، لكنه استجمع شجاعته، وفي حركة سريعة وجد نفسه داخل فناء بيته العزيز... هذا ما كان يخشاه... أن يعود إلى هذا المكان ويقف هذه الوقفة، فيرى ذلك

المشهد من جديد... اعتقد أنه سيكون قوياً وسيقدر على مواجهة ما تهرب منه سنوات، لكنه وجد نفسه أضعف مما تصور، إذ كل مشاهد تلك الليلة تتوالى على مخيلته فأخذ ينتحب كالأطفال ويصرخ بأعلى صوته، حتى سقط مغشياً عليه.

فتح «علي» عينيه فإذا به ممدد داخل البيت وبقربه رجل ابتسم له وقال: «كيف حالك الآن يا بني؟».

نظر حوله بعينين زائغتين وفكر شارد، ثم رد متمتماً:
«الحمد لله».

«إنني سعيد جداً برؤيتك مرة أخرى بعد هذا الغياب الطويل... أعرف أن ما حدث لم يكن بالأمر الهين، لكن الحياة لا بد أن تستمر، وأنت ما شاء الله أصبحت رجلاً، وتستطيع أن تعيد الحياة إلى هذه الدار بعد أن غادرها أهلها».

نظر إليه الفتى نظرة استفهام، ففهم الرجل مراده، وقال:

«تساءل من أكون وكيف عرفتك؟!... أنا جارك «عيسى» أسكن في أقرب بيت إلى مسكنك هذا، وقد كنت بالجوار حين سمعت صراخك، وعندما وصلت وجدتك فاقد الوعي، فعرفت من تكون؛ لأنه لم يبق من تلك الأسرة الراحلة غير ولد واحد نجا بقدرة الله من موت محتم، وأذكر جيداً أنك كنت في نحو الثالثة عشرة من عمرك، وحين رأيته الآن لم أشك لحظة واحدة أنك «علي» ابن الشيخ سليمان صاحب هذه الأرض».

وصمت الجار كأنه يستعيد تلك الذكرى المؤلمة، ثم قال:

قدر الله ألا نكون في بيتنا تلك الليلة، وإلا لأصابنا ما أصابكم، لقد عدنا بعد أيام فسمعنا من أفواه الناس ما حدث لعائلتك، وسألنا عنك حين علمنا بنجاتك لكننا لم نعثر لك على أثر. كان أبوك جاراً طيباً وصديقاً مخلصاً رحمه الله ورحم أمك وإخوتك وليجاز الله القتلة الظالمين».

وسكت حين رأى الدموع تفيض من عيني «علي» فربت على كتفه وقال:

«كفى بكاء يا بني، فالبكاء لا يحيي الموتى، ولا يعيد ما ذهب، وفكر في مستقبلك وحياتك».

فرد «علي» منفعلًا، وقد ارتفع نحيبه:

«إنك لم ترَ ما رأيته بأَم عيني، ولن تتصور أبدًا فظاعة ما رأيت، إنه فوق احتمال البشر وفوق احتمالي، فكيف تريدني ألا أبكي وعائلتي كلها اختفت في ليلة واحدة بأبشع الطرق...».

وصمت يلتقط أنفاسه ويمسح دموعه، ثم واصل، قائلاً:

«كان كل شيء هادئاً تلك الليلة، كنا جميعاً ننام في دعة وأمان حين استيقظت على أصوات غريبة لم تلبث أن اقتربت وارتفعت، وشعرت بوجود أجسام تتحرك في دارنا، كنت أول المستيقظين لذلك نهضت من مكاني وتسلفت حيث قطع الغنم، فاخترأت بينها وبقيت هناك بلا حراك... الظلام يسود المكان، حتى القمر كان غائباً تلك

الليلة فشعرت بخوف شديد ووحشة رهيبة. تحولت همسات الغرباء إلى كلام واضح، وإذا أحدهم - لعله زعيمهم - يصرخ بصوت كالرعد: «هيا. أخرجوهم هنا بالقوة».

سمعت صراخ والدي وإخوتي، وهم يدفعون إلى الفضاء دفعًا وآثار النوم لا تزال في مآقيهم، أضاء الغرباء المكان فرأيت بأم عيني ذلك المشهد المروع وكأنني أرى كابوسًا فظيعةً لا نهاية له. تعلقت أختي الصغرى «أمينة» بأمي وهي تبكي والتصق إخوتي بوالدي والخوف يكاد يقتلهم، بينما اقترب أبي منهم وقال متوسلاً:

«أرجوكم أن تتركونا بسلام، إننا لا نملك شيئاً غير هذه الأرض التي نعيش عليها وبعض قطعان الغنم وعدداً من البقرات... خذوا كل ما نملك واتركونا... لقد أخفتم الأطفال، أرجوكم أن تذهبوا».

لم يتفوه الأشرار بكلمة واحدة، كانت أجسامهم ضخمة يتطاير الشرر من أعينهم كألسنه من النيران، وعلى ظهورهم أسلحة مخيفة لم أرها من قبل وسكاكين كبيرة في أيديهم كتلك التي نستعملها لذب كبش العيد!!... ورأيت زعيمهم يوماً لأحدهم بحركة رأسه، فتقدم رجل لم أر أضخم منه جسماً ولا أفضع وجهًا نحو أبي فجره إليه، بينما أمسك الباقون بأمي وإخوتي وهم يصرخون ويستغيثون، وفي لمح البصر وضع سكينه على رقبة أبي وضرب عنقه ثم رمى برأسه جانباً... أسرع بعدها إلى أمي وانتزعها من بين إخوتي وأغمد السكين في رقبته وبقيت تتنفض بين يديه حتى أسلمت الروح...».

أجهش «علي» بالبكاء حتى اختنق صوته، ثم واصل حديثه، والعبرات تغسل وجهه:

«تقدم الشرس من إخوتي ورمقهم بنظرة شزر ولم يمهلهم حتى ذبحهم الواحد تلو الآخر، وحين جاء دور أمينة ذات الربيعين التصقت بأماها الميتة وتعالى صوتها بالبكاء، وهي لا تعرف شيئاً مما يحدث حولها، ظنت أنه سيشفق عليها ويرحم براءتها غير أنه لم يأبه بها وانقض عليها يذبحها».

سكت «علي» عن الكلام، وقد تجمدت ملامح وجهه وشخصت عيناه، فضمه عيسى إلى صدره بحرارة، وهو يبكي:

«يجب أن تنسى كل شيء، اطرده هذه الذكرى المؤلمة من حياتك، وإلا ستلحق بهم همماً وحزناً».

«لو خرجت إليهم وقتلت معهم لكان ذلك أرحم من العذاب الذي عشته بعدهم... لكنني تجمدت مكاني وبقيت ذاهلاً عن كل شيء حولي حتى بعد رحيلهم وعودة الهدوء القاتل إلى بيتنا... ولا أدري ماذا حدث بعدها؟!... كل ما أذكره أنني أصبحت أقرب إلى الرجل مني إلى الطفل، أعيش في مصحة يحاولون فصلني عن تلك الذكرى وتأبى إلا أن تلاحقني في كل مكان...».

قال الجار بنبرة حانية، محاولاً كتم دموعه:

«سَلِّمَ أمرك لله يا بني، فإن الحزن لن يجدي نفعاً، واصبر على ما أصابك من بلاء، وحاول أن تبدأ حياتك مجدداً... من أجل أن تمد بوجودك جذور عائلتك الراحلة».

لا حظ العم عيسى بالإعياء بادياً على وجه «علي» فهمم بالانصراف قائلاً:

«يبدو أنك لا تزال متعباً، سأدعك ترتاح وأعود لاحقاً».

وألمه أن يخرج ويتركه بمفرده؛ فقال وهو يضغط على يده بقوة:

«إنك لم تعد وحيداً بعد اليوم، أنا وعائلي سنكون أهلك ولن تشعر بالوحدة أبداً... هيا ابتسم فرحمة الله أوسع من أن ندركها».

ثم مضى وفي نفسه بعض الارتياح حين رأى ابتسامة شاحبة ترسم على وجه «علي» وأسرع إلى زوجته وأولاده ينقل لهم أخبار جاره الشاب، ويدعوهم لمساعدته؛ حتى ينسى ما ألم به.

كانت عائلة الجار «عيسى» من الطيبة ونبيل الأخلاق ما جعل أفرادها يترددون على الفتى المنكوب كل يوم يحدثونه ويشغلونه بكل أمر، فانصرفوا إلى البيت يصلحون ما فسد فيه ويعيدون الحياة لغرفته وساحته وبستانه، ويدفعونه للعمل، حتى استغرق فيه فتسي بعض همه.

دبت الحياة في عقل «علي» وشعوره، فإذا هو يجد في نفسه ميلاً لإحدى بنات الجار الطيب، فطلبها للزواج فرضيت الفتاة وأهلها، وأقامت القرية عرساً كبيراً لم تشهد مثله منذ تلك الأحداث المروعة.

تجددت الحياة بتلك الدار وأضحت أشبه مما كانت عليه من قبل، ووجد «علي» برفقة زوجته راحة قلبه واستقرار نفسه، واختفت تلك الكوابيس التي لازمته سنوات طويلة، وسكن إلى الحياة وكأنه ولد من جديد.

وضعت الزوجة مولودها الأول، فكان مجيئه أكبر بشرى وأعظم سلوى، وإذا بالطفلة الصغيرة تداوي كل الجراح بصرخاتها البريئة، معلنة للكون أن الحياة مستمرة برغم كل شيء.

«ماذا نسُميها؟...». قالت الزوجة.

«أمينة... سنسميها (أمينة) على اسم أختي الصغرى؛ لأسعد بلقائها كلما ناديت ابنتي».

اقترب عيد الأضحى المبارك، وكان لا بد لعلّي أن يذهب إلى القرية المجاورة لبيع بعض رؤوس الغنم يوم السوق الذي يسبق العيد، ويشترى بعض الهدايا لزوجته الحامل وطفلته التي بلغت العامين.

نهض ذلك اليوم باكراً، ونهضت زوجته تعد له فطوره ثم تبعته إلى الباب الخارجي للدار تحته على العودة سريعاً، وودعها واعداً إياها بالعودة محمولاً على رياح الشوق.

خرج «علي» والشمس لا تزال نائمة لم تستيقظ بعد، ونجوم ليلة صافية تتلألأ في السماء، ولم يبلغ القرية إلا وقد بدا وجه الشمس يرسل الدفء والضياء، دخل السوق فوجده مكتظاً بالبائعين والمشتريين، ولم يبع بضاعته حتى مضى بعض النهار، وقضى ما تبقى منه في شراء لوازم العيد وهدايا أسرته الصغيرة.

كانت الشمس تتأهب لتوديع أهل الأرض، حين كان في طريق العودة يمشي ويفني أغاني الرعاة وبلغ بيته ولم يبقَ من إشراق الشمس الداهية غير خيوط رفيقة تفصل بين نهار مدبر وليل مقبل دفع الباب، ينادي ابنته باسمها المدلل «أمونة» الذي أطلقه عليها حتى تأتي إليه فيضمها إلى صدره ويمطرها بالقبلات وقد اشتاق إليها بعد غياب يوم كامل!!... طاف باحثاً عنهما، يتغنى بالهدايا التي أحضرها ويختبئ في كل ركن؛ عله يجد أمونته تلعب هنا أو هناك، ولكنه لم يجد أحداً

في البيت، وانتبه إلى صمت المكان وهدوئه الغريب، وتذكر أن كلابه الوفية لم تهرع لاستقباله كعادتها وهي تتبع وتتبعه حتى يدخل الدار... ترى أين هي؟!

شعر بوخز في قلبه فسقطت هداياه من يده، وخرج مهرولاً يطوف بالبيت؛ باحثاً عنهما، فغثر على كلبين من كلابه ميتين بين الحشائش والأعشاب فأصابه هلع فظيع أعجزه عن الحركة والرؤية والتفكير فجثا على ركبتيه يغالب الدموع في عينيه ويقول:

«لا، لن أطيقها هذه المرة... لن أطيق مأساة أخرى... زوجتي وابنتي هما كل حياتي، ولو حدث لهما مكروه فلا حياة لي بعد الآن... لا حياة لي...».

ثم نهض كالمجنون لا يدري أين يبحث عنهما وقد أوشك الظلام أن يلف المكان، وشعر بشيء ما قابلاً على مقربة منه، فمضى إليه مسرعاً يلهث، فإذا زوجته ملقاة قرب البئر سابعة في دماء أخفت ملامح وجهها، فجلس إليها وحملها بين يديه باكياً، وهو يمسخ وجهها بطرف ثوبه... وفي لحظة كوميض البرق قفزت صورة أهله إلى ذهنه واحداً، واحداً... أبوه... أمه... إخوته... وها هي ذي زوجته أمامه ككل أحبته غارقة في دماؤها تكاد رأسها تنفصل عن جسدها، تحمل جثة أخرى في بطنها، كالأمس القريب...

نهض من مكانه يجري في الفيافي، وقد انتشر السواد في الأرض مثلما انتشر في نفسه، وردد الكون كله صدى صوته وهو يصرخ صرخة أذهبت ما تبقى من عقله.

obeikandi.com

السقوط

كان «مصطفى» زميلاً لي في العمل، نتقاسم مكتباً واحداً يتكون من حجرتين يفصل بينهما باب صغير، ضمت الحجرة الأولى مكتبين موضوع عليهما أكوام من الدفاتر والأوراق، أما الحجرة الثانية فليس فيها سوى خزانة حديدية وبعض الأدراج لحفظ ملفات العمل.

شعرت بالاطمئنان أول يوم تعاملت فيه مع زميلي، إذ كان رجلاً طيباً لا تفارق الابتسامة وجهه، عرفته وقد تجاوز الأربعين، غير أنه - لنشاطه المعهود واهتمامه بنفسه - يبدو أقل من عمره بسنوات، ومع مرور الوقت نمت زمانتنا لتصبح صداقة متينة ومحبة خالصة، وبرغم كونه رجلاً كتوماً لا يحدث أحداً عن حياته الشخصية إلا أنه خصني بالحديث عن أموره الخاصة، وكم كنت معجباً بحياته الزوجية، فقد كان سعيداً مع زوجته وأطفاله الخمس، هائناً في عشه الدافئ، يرفرف الرضى والمرح على كامل أرجاء بيته.

قال لي ذات يوم، ونحن نتبادل أطراف الحديث:

«هل تعرف يا رؤوف... أنا أول رجل في حياة زوجتي، فقد أحببتي ولم تبلغ الثالثة عشرة بعد، كانت تزورنا بحكم القرابة التي تربطنا،

وكنت أزورهم أيضاً، وبرغم أنني عرفت كثيراً من النساء قبلها إلا أنها لم تعرف رجلاً آخر غيري... لقد ملكت حياتها كلها، ولا أدري ما كانت ستفعل بنفسها إن لم نتزوج!!...».

«إنك رجل محظوظ يا صديقي، فالنساء كن دائماً تحت قدميك يرجون قربك، وفي الأخير تزوجت قريبتك؛ لتحمل لك السعادة في طبق من ذهب!!...».

فرد كأنه يفكر فيها:

«فعلاً... عشر سنوات من الزواج أهدتني خلالها السعادة التي يحلم بها كل رجل... هي تقول دائماً: إن سعادتني عندها غاية وجودها».

وشرد قليلاً، ثم أضاف قائلاً:

«لكنها امرأة غيور جداً... ربما درجة غيرتها تفوق درجة حبها لي، وهي تبذل جهوداً كبيرة لكبح جماح غيرتها؛ لكيلا تؤثر سلباً على علاقتنا، كما أنها أفهمتني شيئاً واحداً بصرامة أخافتني، ولم تردده على مسمعي إلا مرة واحدة...».

فسألت مندهشاً:

«ماذا قالت لك؟!».

«قالت: إذا استبدلت بي امرأة أخرى، فإنها نهاية ما بيني وبينك!!...».

فقلت، مازحاً:

«هي كما يقول شكسبير: المرأة إذا أحببت أحبت بجنون، وإذا

كرهت كرهت بجنون أيضاً... يجب عليك يا عزيزي، ألا تكفر بالنعمة وتدوس على السعادة التي تهديها لك زوجتك فتخسر كل شيء». فقال شاردًا:

«أقدر ذلك حق التقدير، لكن...».

«ما زلت أجد في نفسي بعض الضعف تجاه النساء برغم حبي لزوجتي... ألا ترى هذا غريبًا ومتناقضًا؟...».

اسمع يا مصطفى، لا يملك الإنسان قلبين في جوفه، وإذا أحب الرجل امرأة واحدة حبًا صادقًا، فهي تغنيه عن كل نساء الدنيا، بل لا يمكن أن يستشعر في نفسه أي ضعف، وزوجته الحبيبة بين يديه. إذا كان يحبها فعلاً...».

«إنني أحبها حقيقة، لكنني رجل ككل الرجال!!...».

فقلت مبتسمًا:

«تقصد: خائن... غادر... مخادع...».

فرمقني صاحبي بنظرة غاضبة، وقال:

«أتَهْزَأُ بي يا رؤوف؟...».

«لم أقصد، لكنني أعدد لك صفات الرجل الذي ذكرت... الرجل لا يمكن له أن يحب في الحقيقة غير امرأة واحدة، أما عدا ذلك فنزوات ورغبات يتمنى تليبتها بحجة ضعفه البشري، لكن الرجل المؤمن يخضع لميزان الحلال والحرام؛ حتى لا يقوده هواه وضعفه إلى ما لا تحمد عقباه».

أشرق وجهه بابتسامة هادئة، وقال:

«لا تخش شيئاً يا صديقي العزيز، إن بيتي أعلى ما أملك في حياتي، ولن أفعل ما يهدد سعادته واستقراره».

وقطع نقاشنا بعض زملائنا، فتسببنا هذا الموضوع وانصرفنا إلى أعمالنا.

بعد بضعة أسابيع، أرسلت مبعوثاً من شركتنا إلى شركة أخرى في ولاية بعيدة أقوم بتربص لأكثر من عام، فودعت صديقي ووعدته بالزيارة كلما أتحت لي الفرصة، وشدت الرحال إلى تلك البلدة، فمكثت بها بضعة أشهر.

في إحدى الإجازات القصيرة، أردت إسعاد صديقي بزيارة مفاجئة، فذهبت إلى المكتب دون أن أسأل عنه، ولأنني أملك مفتاح الباب الخارجي فقد دخلت فلم أجد أحداً بالغرفة الأولى، فسعدت بذلك سعادة كبرى، إذ قلت في نفسي: أختبئ في الحجرة الثانية، حتى يأتي فأفاجئه... وباحتراس شديد فتحت الباب الذي يفصل بين الحجرتين، وسمعت همساً فتعجبت للأمر وأردت أن أعود بخطواتي للوراء لكن الفضول دفعني إلى الأمام، فإذا بصديقي وفتاة أخرى لم أتبينها في وضع مريب يتهامسان... وحاولت الانصراف دون أن يلمحني أحد منهما، لكن مصطفى رأني، وما إن وقعت عينه على عيني حتى أسرع الخطوات، وخرجت من المكتب أخفي داخلي ألماً يمزق قلبي.

فكرت كثيراً قبل انتهاء إجازتي: هل أذهب إليه وأحدثه في الأمر أم أتجاهل ما رأيت وأعود إلى حيث كنت وكأن شيئاً لم يكن؟!... إنه كبير بما

فيه الكفاية ليعرف الصحيح من الخطأ، فماذا عساني أقول له. وتذكرت بيته الهائئ وزوجته المحبة له وأطفاله الصغار... يا له من غبي! كيف يقدم على مثل هذا الأمر، وفيه خراب بيته وتشتت أسرته؟!...

في الأخير لم يطاوعني ضميري، فذهبت إليه بدافع الصداقة التي تربطنا، فتحت الباب فإذا هو جالس يفكر كأنه ينتظرنني، ألقيت السلام عليه ثم جلست وراء مكتبي مقابلاً إياه كما كنا دائماً... مكثنا بعض الوقت صامتين لا يجرؤ أحدهما قطع الصمت الذي خيم بيننا، وحين هممت بالحديث قال مطأطئاً:

«أعرف ما ستقوله... أنا آسف جداً... لم أتوقع مجيئك، فترى ما رأيت!...»

فقلت غاضباً:

«حتى لو لم أرك، فإن الله يراك... ألم تخجل من نفسك؟!...»

صمت ولم يجب، فواصلت معاتباً:

«أردت الاختباء بتلك الحجرة؛ لأفاجئك بزيارتي... يا لسذاجتي!..»

لو تعلم كم كنت أعتر بصدافتك قبل الآن، وكم كنت أحترمك...»

فقاطعني، قائلاً:

«أرجوك، دع صداقتنا جانباً، فلا أريد لأي شيء أن يمسه»

بخدش... إنني أعترف بخطئي، لكنك لو رأيتها حين تأتي يومياً إلى

مكتبي تثيرني بكلماتها ونظراتها... لقد قاومت إغراءها، لكنني في

النهاية استسلمت..»

فقلت ساخراً:

«أهي من أغرتك أم أنت من أغراها؟!.. لا يمكن لأي امرأة أن تتجراً على رجل إن لم تجد منه استعداداً ومساعدة».

قال، وقد بدا الألم في عينيه:

«حاولت أن أصد عنها نفسي في البداية، لكنها أبت عليّ، كلما وجدت لها أمامي ازداد اللهب استعاراً في داخلي، وازداد شعوري بالضعف... الضعف الذي حدثتك عنه ذات يوم».

فقلت ونظرات الازدراء في عيني:

«رب عذر أقبح من ذنب».

صمت كلانا، وفي أعماق كل واحد منا نار تتأجج، ولم أطلق صبراً، فصرخت في وجهه قائلاً:

«زوجتك وأولادك ألم تفكر فيهم؟!... ألم تفكر في بيتك الذي ستكون سبباً في خرابه لو علمت زوجتك بما اقترفت يداك؟!... أليس بيتك كل شيء في حياتك؟!..».

فقال والدمع يوشك أن يفيض من عينيه:

«ستكون النهاية لو علمت زوجتي...».

ثم أضاف:

«لكنها لن تعلم بالأمر، إنها غلطة ولن تتكرر أبداً».

هدأت حين سماعي هذه الكلمات، ثم سألتها في إشفاق:

«هل أنت واثق أن الخطأ لن يتكرر؟».

صمت ولم يجب، فأدركت أن الخطأ سيتكرر حتمًا ما دامت أسبابه موجودة، فأطرقت أفكر ثم نظرت إليه فألمني حاله، وقد ارتسم الصراع الذي بداخله على صفحة وجهه، فقلت بنبرة هادئة:

«وهي... الفتاة التي كانت معك من تكون؟...».

أجاب خجلًا، وتلك الصورة التي رأيته عليها ماثلة بين عينيه:

«هي... هي زميلتنا «غنية»... الفتاة التي وظفت بشركتنا أشهرًا

قبل ذهابك».

«أذكرها... الفتاة اللعوب التي توزع ضحكاتها على كل الرجال...»

هي غير مرتبطة، أليس كذلك؟».

«بلى».

«وماذا تنتظر منك؟».

«لا شيء».

فقلت متعجبًا:

«كيف لا شيء؟... ألا ترى فيك زوج المستقبل؟».

رفع بصره نحوي، وقال:

«أخبرتها أنني متزوج وأب لخمسة أطفال».

فقلت بسذاجتي المعهودة:

«ربما تريد أن تكون الزوجة الثانية لك».

فرد موضحاً:

«حدثتها عن غيرة زوجتي، وأنه من المستحيل الزواج عليها؛ حرصاً على بيتي وأطفالي».

عجبت لأمرها أكثر وقلت مستفسراً:

«سبحان الله!.. وما دفعكما إلى ذلك الفعل والزواج بينكما غير وارد؟!..».

فقال مطأطأً مرة أخرى:

«الحب بيننا متبادل، وهي لم تجد مانعاً من ... من تمضية وقت ممتع معاً...».

ونظر إليّ بطرف عينه، فرأى على وجهي علامات الاستفهام والتعجب تحاصره ونظرة منكرة كالسهم، اخترقت ضلوعه لتستقر في قلبه، فاضطرب في جلسته ثم وقف يحدثني بعصبية بالغة محاولاً إخفاء اضطرابه:

«إننا لسنا ملائكة، بل بشر نخطئ أكثر مما نصيب، والضعف فينا مكين، قد نسيطر عليه وننتصر فتزهو بقوتنا وثباتها، لكننا نستسلم لضعفنا أحياناً أخرى فنرتكب أخطاء تمرغنا في الوحل...».

إنني رجل ضعيف أمام المرأة، ربما كأغلب رجال الكون، ولست أملك القوة الكافية التي تردعني عن الخطأ إذا اجتمعت كل الأسباب التي تغريني بالوقوع فيه...».

وصمت يلتقط أنفاسه، فقلت هادئاً لا أرفع بصري عنه:

«وتقوى الله؟... ألم تستشعر رقابته عليك وأنت تأتي الحرام؟...
ألم تستح منه؟... ثم غضبه وعقابه ألا تخشاهما؟...»
فقال مطرقاً:

«الله أعلم بضعفنا، وهو أرحم بنا من أنفسنا».

«لكن... ألا تخشى عواقب ما فعلت؟».

«لم يعلم بالأمر أحد سواك».

«لا أقصد ذلك».

«وماذا تقصد؟»

«ألا تخشى...».

ولم أستطع إكمال الجملة، فبرغم صداقتنا الوطيدة إلا أن الاحترام
كان متبادلاً بيننا. فسكت، وكأنه فهم ما أرمي إليه، فقال:

«لا تخش من هذه الناحية، فتحن لم نأت ما يشكل خطراً على
أحدنا... أنت تعرف مخترعات هذا العصر...».

وابتسم، فاستكرت ابتسامته في مثل هذا الموقف، وقلت معقياً:

«إنك تحوم حول الحمى وتوشك أن تقع فيه، وكلاكما يلعب بنار لن
تتحرق سواكما».

غضب مصطفى من محاسبتني لأفعاله، وشدة تقريري لشخصه،
فصرخ في وجهي قائلاً:

«من حقي أن أستمتع بحياتي وأنهل من متع الدنيا، إن لي قلباً يخفق
بين جانبي ككل البشر، وكوني متزوجاً لا يمنع أن تكون لي علاقات

عابرة ومغامرات أستعيد بها شبابي الذاهب... لا أنت ولا أي شخص آخر يستطيع أن يحرمني من هذه المتعة...»

«وزوجتك؟!»

«مكانتها محفوظة في قلبي، وهي في بيتها معززة لا ينقصها شيء».

«وربك الذي هو رقيب عليك؟!»

«سيغفر لي؛ لأنني لا أضُر أحداً».

«إنك تضر نفسك».

«بل أنساق وراء ضعفي الذي ركبه الله فيّ وجعله جزءاً لا يتجزأ مني... أنا لا أحب تعذيب نفسي بصراع مرير مع عواطفِي، أعلم مبدئياً أنني سأخسر في النهاية».

وسكت على مضض برغم تراحم الكلمات على لساني، فقد بدا لي متناقض الأقوال، مشئت الأفكار، فتهضت من مكاني، واقتربت منه وقلت أربت على كتفه في رفق:

«إنني صديقك الحميم يا مصطفى، ولست أحدثك بهذه الشدة إلا لخوفي عليك، أرجوك أن تعيد النظر فيما فعلت وتتوب من ذنبك؛ لئلا يحل غضب الله عليك. إن في نفسك بذوراً طيبة كثيرة لا تردمها بتراب شهواتك وأهوائك، ولا تدع الشيطان يمتلكك فيهلكك، فتندم حين لا ينفع الندم».

هممت بالانصراف، فقال ضاغطاً على يدي بقوة:

«أشكرك أيها الصديق المخلص، في زمن قلّ فيه الأصدقاء، فما من أحد يقلقه أمري مثلما يقلقك أنت... أيها الضمير المزعج...».

وابتسم فرددت ابتسامته بأحسن منها، ثم قلت قبل أن أنصرف:
«هل تعدني بشيء؟».

«ماذا؟».

«ألا تقرب هذه الفتاة مرة أخرى!..».

فقال يتبعني إلى الخارج:

«أعدك؟... لا أستطيع... لكنني سأحاول إخراجها من حياتي...».

افترقنا ذلك اليوم، وعدت إلى البلدة البعيدة، حيث بقيت أشهرًا طويلة بدت لي دهرًا، إذ كثيرًا ما أتذكر مصطفى، فأخشى عليه من شر نفسه.

عدت أخيرًا إلى عملي، وما إن وطئت قدمي أرض الشركة حتى استقبلني زملائي بالترحيب لطول غيابي، ولم يلبث أحدهم أن مال علي وشدني من ساعدي، وقال بعد أن انزوى بي بعيدًا عن الآخرين:

«هل سمعت ما حل برفيق مكتبك؟».

فقلت مندهشًا:

«مصطفى؟».

فرد، وابتسامه مأكرة على شفتيه:

«نعم، مصطفى، ومن غيره».

فقلت فرعًا:

«هل حدث له مكروه؟».

فقال ساخرًا:

«بل هو من أحدث مكروهاً!!...».

«ماذا تقصد؟!...».

«كل الشركة تتحدث عن فعلته مع الزميلة غنية، أظنك تذكرها...».

وكدت أفهم كل شيء حين همس الزميل في أذني:

«كان على علاقة آثمة بها في الخفاء، لكنها حملت منه، فافتضح أمرهما».

شخصت عيناى فيه، وصرخت:

«حملت منه؟!...».

قال متلذذاً بنقل الخبر إليّ:

«نعم، وحضر أهلها يهددون ويتوعدون أن يقتلوه إذا لم يتزوجها».

فسألته، وقد تصبب العرق على جبيني:

«وهل تزوجها؟!...».

«بالطبع... إنك لم تر الشرر المتطاير من أعينهم حين جاؤوا إلى

هنا يبحثون عنه... لقد خيروه بين الزواج بها أو قتله... فالعار لا يمحوه

سوى الدم... هذا ما قالوه...».

ثم همّ بالانصراف، خاتماً قوله:

«لقد كان حدثاً عصبياً هز شركتنا... من كان يظن أن مصطفى

يجرؤ على مثل هذا الفعل؟!...».

شعرت بثقل قدمي أعجزني عن الوقوف، فاستندت إلى الحائط أمسح عرقى... بخطى بطيئة توجهت إلى المكتب، وجدت مصطفى جالساً يقلب بعض الأوراق، حين وقع بصري عليه هالتي شحوب وجهه وتركه للحية تنمو على وجهه في غير انتظام. نهض وسلّم علي بحرارة، فبدا لي في هيئة غير التي عهدتها عليه، وكأن الهرم غزاه مرة واحدة.

شعرت وهو يضمني إلى صدره بقوة كأنه غريق يضم إليه قارب نجاة عثر عليه فجأة بين أمواج البحر العاتية.
قال محاولاً إخفاء دموعه:

«الحمد لله على سلامتك يا رؤوف... ما هذه الغيبة يا صاحبي، اعتقدت لك تعود أبداً».

فقلت مداعباً والحزن بادٍ في نبرة صوتي:

«ها قد عدت... لا أستطيع أن أتركك وحيداً في هذا المكتب».

وصمتنا لا يعلم أحدنا كيف يبدأ الموضوع، وهممت أن أسأله سؤالاً واحداً: هل علمت زوجته بالأمر؟ لكن قرعاً قوياً على الباب أربكني، ودخلت سيدة في نحو الأربعين لم يقع بصر مصطفى عليها حتى رأيت وجهه يتغير إلى أن أضحى كأوجه الموتى، وتسمر في مكانه كمن تعرض لضربة قاضية، ولم تمهله حتى قالت دون مقدمات:

«في هذا الصباح، وأنا أزور الطبيب، سمعت نساء يتحدثن عن موظف يعمل بهذه الشركة كيف غرر بفتاة تصغره بسنوات فحملت منه، وأن أهلها هددوه بالزواج منها أو قتله فتزوجها واستأجر لها غرفة صغيرة في انتظار أن يجد لها مسكناً...».

وسكتت تبتلع دموعها وتحاول التحكم بأعصابها، ثم واصلت تقول:

«عندما سألت إحدى النساء عن اسم هذا الحقيقير، ذكرت المتحدث اسمًا أعرفه جيدًا... ولم تكفِ بذكر الاسم فقط، بل أسهبت في الحديث عن زوجته وأطفاله وبيته... هن يعلمن كل شيء وأنا المغفلة لا أعلم ما يجري في عقر داري... وجئتُك الآن لأسألك سؤالًا واحدًا: هل ما قيل عنك صحيح؟... لا أريد سماع التفاصيل، أريد جوابًا مختصرًا: نعم أم لا؟!...».

نظر ناحيتي كأنه يستجد بي، لكنني لم أحرك ساكنًا، إذ أدركت أن زوجته بقدر حبها له وغيرتها عليه سيكون عقابها.

استجمع مصطفى ما تبقى من شجاعته، وقال بصوت أشبه بالهمس:

«نعم!!...».

شعرت بها تغلي كبركان يوشك أن ينفجر، وهي تقول:

«أتأتي هذا الأمر الشنيع، وأنا معك بكل الحب الذي أحمله لك في قلبي وبكل ما أبذله لإسعادك؟ أتهدم بيتًا عامرًا عمره عشر سنوات في لحظة طيش عابرة ومن أجل متعة زائلة؟!... أهذا جزاؤنا؟! هل هذا دليل حبك لبيتك وأطفالك؟!...».

وأطرقت تستعيد رباطة جأشها، ثم هدأ بركان غضبها وبحزم لم أعده في امرأة قالت:

«في المساء عند عودتك ستجد كل أغراضك معدة، سأخبر الأطفال أنك مسافر سافرًا بعيدًا قد لا تعود منه... وأريد ورقة طلاق في الغد... لقد انتهى ما بيننا... وإلى الأبد».

وفتحت الباب تنوي الخروج، فإذا بها وجهًا لوجه مع هادمة عشها
بيطنها المتكورة، تبادلتا نظرات ملتهبة، ثم وجهت لزوجها نظرة احتقار
لووزنت في ميزان الأسلحة لأردته قتيلاً مفكك الأعضاء والخلايا...
وخرجت لتتبعها الثانية بعد دقائق قليلة، وهي غاضبة أيضاً.

ألقى مصطفى جسده على الكرسي، وأخفى وجهه بين راحتيه،
وراح يبكي بكاء الأطفال، ويقول بصوت خنفته العبرات:
«أرجوك يا رؤوف، لا تتخلّ عني، لقد خسرت كل شيء في حياتي...
كل شيء...».

فأمسكت يده المرتعشة، وضغطت عليها بقوة قائلاً:
«لن أتخلّى عنك أبداً يا صديقي... لن أتخلّى عنك...».

غريب

جلس غريب إلى ظل شجرة يلتقط أنفاسه، ثم نظر يمنة ويسرة؛
 عله يرى أحداً، لكنه لم يبصر غير أرض ممتدة الأطراف وشجيرات
 متفرقة تتخللها بيوت متناثرة تبدو كأنها خالية من السكان، يقطع
 تلك الأرض طريق طويلة ترتادها آلات غريبة تمر بسرعة رهيبة. ألقى
 بصره على امتداد تلك الطريق، فإذا ظلال مرتفعة عن الأرض تظهر
 صغيرة من بعيد، نهض يسرع الخطا نحوها وابتسامة عريضة تتوج
 وجهه البشوش.

وصل المكان، فإذا تلك الظلال بنايات لمدخل مدينة، توغل
 فيها، فكثر عدد الناس المنتشرين في شوارعها، وازداد عدد المحلات
 والمساكن، وكثر الضجيج وكأنه يدخل سوقاً عامرة.

كان غريب يقطع شوارع المدينة وعيناه معلقتان بكل شيء يراه...
 يا لدهشته!!... هل هو مستيقظ أم نائم يهذي بأضغاث أحلام لا وجود
 لها في الواقع؟!...

أخذ يمرر بصره على ما يجده أمامه وهو يحدث نفسه، قائلاً:

«يا إلهي!... أين أنا؟!... كل شيء هنا جميل ورائع... هذه المحلات
 التجارية بواجهاتها البراقة وخلفها تلك الألبسة والأحذية واللعب، وحتى

المأكولات الشهية... وهذه البنايات الشامخة تجاورها الحدائق الغناء، ما أجمل أشجارها وزهورها!.. لا أكاد أصدق ما تراه عيني، ألسنت فوق الأرض أسير أم انتقلت إلى كوكب آخر في فضاء الله الواسع؟!... أكيد أنني لا أزال على الأرض، فهؤلاء البشر مثلي صحيح أنهم مختلفون عني في كل شيء لكنهم بشر... لكن، لماذا يسرعون هكذا؟!... ولماذا العبوس والتجهم على محياهم كأنهم ناقمون على الدنيا كلها؟!... لكم أبدو بطيئاً وغريباً بينهم».

كان المارة يتدفقون جيئةً وذهاباً بسرعة، وكلما مرّ به أحد حدّجه بنظرة غريبة مستفسرة كأنه يقول:

«من هذا الشخص الغريب بينها؟!». لم يكن شكله غريباً، لكن لباسه كان وراء نظرات الناس إليه، فهو لا يرتدي بنطالاً وقميصاً ككل الذين رأهم، بل جبة طويلة ربطها في وسطه بحزام عريض وعباءة فضفاضة، كما يضع على رأسه عمامة مهيبة، ويتعلّ حذاءً بسيطاً لا يمكن العثور على مثله في كل محلات المدينة.

لم ينتبه «غريب» لنظرات الناس إليه، فعقله منصرف إلى ما تقع عليه عينه في انبهار شديد، وازدادت دهشته حين رأى ما ترتديه النساء من لباس فاضح يكشف فتنة أجسادهن، ويعري عن صدورهن وأرجلهن في جرأة كبيرة، وقد بدون بأوجههن الملطخة بالمساحيق كأنهن دمي يتحركن لنشر الفتنة وإشعال نيران الشهوة الحيوانية لدى الرجال. طأطأ غريب رأسه خجلاً، ثم رفعه فإذا بشابين يتوقفان عنده وهما يتهاوسان، قال أحدهما:

«انظر إلى هذا الرجل، كأنه قادم من عصر هارون الرشيد!!...».

فقهقه الثاني في ابتذال، وأشار إلى غريب بإصبعه:

«بل كأنه خرج من مسلسلات التليفزيون الدينية!!... ربما هو بطل نسي نزع ملابس التمثيل، حين خرج من الإستديو!!...».

وانطلقا يضحكان ويتغامزان حتى اختفيا عن الأنظار، وهمس غريب مشدوهاً:

«لقد فهمت ما يقولانه، إنهما يتحدثان بلسان عربي برغم بعض الكلمات التي لم أفهمها».

وانتبه إلى اللافتات التي تزين المحلات وإشارات المرور وغيرها، فإذا هي مكتوبة بخط عربي واضح استطاع أن يقرأه في يسر، ولم يدر هل يفرح أم يحزن؟... لقد اعتقد جازماً أنه على أرض أعجمية، أفي عقل أن يشعر بتلك الغربة، وهو في بلاد عربية؟!..

وتساءل بينه وبين نفسه:

«هل هؤلاء القوم مسلمون؟».

انطلق يمعن النظر في أوجه المارين، ويراقب سلوكياتهم، ويحاول سماع أحاديثهم؛ بحثاً عن هويتهم الدينية، ولم يجد أثراً للإسلام في كل ما وقعت عليه عينه، فالنساء سافرات لا يدرى تحديداً هل هن كاسيات أم عاريات؟!... أما الرجال فمتجهمو الوجوه، لا يلقون السلام، يذهبون ويجيئون كالغرباء ليس بينهم علاقة ولا تربطهم رابطة، وعلى

الطرقات ينتشر المتسولون والأطفال المشردون. اعتقد غريب أنه وسط قوم عرب يدينون بغير الإسلام، ولم يستطع الجزم بذلك، فرفع بصره يحملق في البنايات المتراسة بعضها إلى جانب بعض يبحث عن مبنى بعينه، قائلاً في نفسه:

«سأبحث عن بيوت الله... عن المساجد، إذا وجدت مسجداً تقام فيه الصلاة دل ذلك على أنني في أرض مسلمة».

مشى غريب يعبر الطرق والمسالك؛ باحثاً عن مسجد بين الأعين التي لا تزال ترمقه بنظرات تعجب واستفهام، ولمح فتاة تقبل في الاتجاه المعاكس له ترتدي لباساً طويلاً يغطي كامل جسدها وتخفي شعرها بخمار أبيض يتدلى على كتفها، فانفجرت عن شفثيه ابتسامة عريضة، ولما اقتربت منه أطلق لسانه، قائلاً لها:

«السلام عليكم».

فابتسمت الفتاة، وهي تنظر إلى زيه ثم ردت:

«وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

شعر الغريب بسعادة عظيمة حين داعبت هذه الكلمات أذنيه، وقال بفرحة تلالأت في عينيه:

«الحمد لله... إذا فأنا على أرض عربية وأهلها مسلمون!!...».

«ماذا؟!...». قالت الفتاة مشدوهة.

«هل لي أن أسألك يا ابنتي... أين أنا؟».

فازدادت دهشة الفتاة، وقالت:

«أين أنت؟... ألا تعرف أين أنت الآن؟!..».

«لا أعرف، لقد بعثك الله لي لتجيبيني على أسئلتى... أنت عربية مسلمة، أليس كذلك؟...».

«بلى...».

«وكيف يسمى هذا المكان الذي نحن فيه الآن؟».

«أنت في مدينة سين».

«سين؟!... لم أسمع بها قط!! على أي بقع الأرض تقع؟!... أقصد...».

فقاطعت الفتاة، وقد نفذ صبرها:

«إذا كنت لا تعرف اسم هذه البلدة وموقعها، فكيف وصلت إلى هنا إذا؟!...».

فصمت غريب، ولم يدر كيف يجيبها وأخذ يتمتم بصوت خافت:

«كيف وصلت إلى هنا؟!... لا أدري!! كنت نائمًا وعندما استيقظت هذا الصباح وجدت نفسي عند مدخل هذه المدينة تملؤني الدهشة من كل ما أراه، فهو عالم يختلف عن العالم الذي عشت فيه... كل شيء هنا مختلف تمامًا... يا إلهي، ماذا يحصل لي؟!... كيف جئت إلى هنا؟!... لا أستطيع أن أجيبك؛ لأنني نفسي لا أعرف الجواب...».

فضحكت الفتاة، وقالت بنبرة اختلط فيها الجد بالمزاح:

لا بد أنك مسافر عبر الزمن!!... ألم يدخلوك في آلة تخرق الزمن والمكان وتسافر في الحاضر والمستقبل وتكشف حياة الناس في ماضيهم الغابر أو تتنبأ لهم عن مستقبلهم الغامض؟...»..

فنظر إليها الغريب نظرة عتاب، وقال لها:

«أتهزئين بي، وقد توسمت فيك الخير وانتظرت منك العون، وأنت تتحدثين بلساني وتدينين بديني؟».

فاعتذرت متوسلة:

«أرجوك سامحني، فأنا لا أهزأ بك، وإنما شاهدنا أفلاماً كثيرة عن السفر عبر الزمن حتى اعتقدت أن الخيال أصبح حقيقة، فكل شيء ممكن في زماننا هذا».

«هلا أجبتني على سؤالي رجاء؟...».

وحددت له الفتاة موقع المدينة وحدود الدولة التي تنتمي إليها، وبعدها عن الدول الأخرى، وحدثته بإسهاب عن جغرافيا القرن العشرين، ونظرت إلى الساعة، فارتبكت وقالت للغريب:

«أرجو أن تسامحني، لكن لدي امتحان مهم، ويجب أن أسرع للوصول إلى الجامعة، معذرة يجب أن أذهب».

وانطلقت كالسهم تخرق جموع الغادين والرائحين وفي عينيها أسف عظيم؛ لأنها لم تعرف شيئاً عن هذا الرجل ولم تستطع مساعدته إلا قليلاً.

وتابع غريب طريقه يبحث عن ضالته، حتى توقف فجأة أمام بناية مميزة بمنارتيها وقبتها وقرأ فوق بوابتها الرئيسة:

«مسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فحمد الله كثيراً ثم أسرع بدخوله، فوجد الباب الخارجي مغلقاً، واحترار أيمن أن تغلق بيوت الله أمام عباده!!».

وتشجع مرة أخرى، وسأل أحد المارة:

«ألا يفتح المسجد للصلاة؟».

فأجابه:

«إن المساجد لا تفتح إلا في مواقيت الصلاة وتغلق دون ذلك».

«لكن بيوت الله هي المكان الوحيد الذي يجب أن يبقى مفتوحاً طوال الوقت يقصده الناس متى شاؤوا فلم يجبه أحد، فقد اختفى الرجل عن ناظره كأنه يسابق الزمن».

جلس غريب أمام المسجد ينتظر صلاة الظهر، وشعر بالجوع والعطش، فنظر حوله يستطلع المكان، فوقعت عيناه على محل واسع يكتظ بالناس، فغادر مكانه متوجهاً إليه، وعندما دخله شعر بالأعين ترمقه في فضول ودهشة، اخترق جموع الجالسين واتخذ له مجلساً على طاولة فارغة في ركن المقهى وبقي ينتظر، وسمع صوتاً قوياً غطى أصوات الجالسين وطفى على جلبتهم وضوضائهم، فرفع بصره يبحث عن مصدر الصوت، فإذا بجهاز معلق على الحائط يتحدث وصور تتناوب في الظهور على مربع زجاجي، وفغر فاه من الدهشة وهو يراقب

المناظر المتلاحقة وينصت إلى الصوت في اهتمام شديد، واختفت تلك الصور التي أبهرته لتظهر امرأة جميلة تحمل بين يديها حزمة من الأوراق تحوي أخبار العالم الذي حل به، وبهت لسماع ما يجري هنا وهناك:

«حروب، فتن، مجاعات، انقلابات، حرائق، فيضانات، أسلحة نووية، اختراعات جديدة، آلات غريبة... ما كل هذا؟! ما يحزن في هذا العالم أكثر مما يفرح!..».

ونزف قلبه في صدره حين ظهرت القدس بمسجدها تعاني أغلال الاحتلال الصهيوني، ودمعت عينه لمرأى الأطفال وهم يرمون الغاصب بالحجارة والنساء ينتحبن، وقال في نفسه:

«القدس في يد بني إسرائيل؟! والمسجد محاصر بالكفار؟!... أين العرب والمسلمون؛ ليحرروا هذه البقعة الطيبة من الذل المهين؟!... ألم تلد النساء في هذا الزمان صلاح الدين؟!... يا إلهي، أهذا مستقبل خير أمة أخرجت للناس؟!... ليتني لم أره... ليتني لم أعرفه...».

ومسح دمه الغزير وواصل رؤية الأخبار، فإذا بالمسلمين في كل مكان يعانون، يحيط بهم الأعداء من كل جانب ييغون إبادتهم عن آخرهم وإخراص صوتهم إلى الأبد، وشعر بالإسلام غريباً في هذا العالم الجديد، وابتسم ابتسامة ساخرة بينه وبين نفسه، وهو يقول:

«اعتقدت أنني الغريب الوحيد بهذه البلدة وهأنذا أرى بأم عيني غربة كل المسلمين، بل غربة الإسلام في هذه الغابة المتوحشة التي يسمونها الأرض».

وتوجه إليه صاحب المقهى، وسأله قائلاً:

«ما حاجتك؟».

فقال غريب وهو لا يزال متأثراً بما شاهده:

«إنني عطشان، وأكاد أموت جوعاً، فهلا أطعمتني وسقيتني لوجه الله تعالى؟».

نظر إليه الرجل باستغراب، وقال له:

«وهل لديك المال لتدفع؟».

«لا.. لا أملك درهماً واحداً... إنني عابر سبيل وغريب عن هذه البلدة، لكنني عربي مسلم مثلكم أفلا أجد حاجتي عندكم؟».

فرمقه الرجل بنظرة شزراء، وقال:

«نحن لا نسقي إلا من يدفع مالاً وليس للمتسولين أي مكان عندنا... هيا انصرف...».

فخرج الغريب وقلبه يعتصر ألماً، محدثاً نفسه:

«متسول؟... سامحه الله... ما هذه القسوة؟... أهذا مسلم؟ لا.. أبداً، لا يمكن أن يكون مسلماً من لا يرحم خلق الله، ولا يبادر إلى مساعدتهم».

ومشى بضع خطوات حين وجد نفسه أمام مطعم تفوح منه رائحة طعام شهية زادت إحساساً بالجوع، ونظر إلى الداخل يريد الدخول لكنّ

قدميه أعجزتاه عن الحركة وكلام الرجل الأول يصم أذنيه، ولاحظ صاحب المطعم تردده، وهو أمام باب محله فأقبل نحوه وأمسك بيده يضافحه بابتسامة عريضة كأنه يعرفه:

«هل لك حاجة أيها الشيخ الجليل؟».

فتمتم الغريب بكلام غير مفهوم، فقال له الرجل وهو يجره إلى الداخل:

«تفضل بالدخول، وسنرى حاجتك... هيا اجلس هنا».

أجلسه على طاولة بمفرده، وحوله الناس يأكلون ويتحدثون، وما هي سوى لحظات حتى جيء له بطعام شهى وقارورة من شراب لذيذ، وقال له صاحب المطعم:

«هيا تفضل بالهناء والشفاء... لقد اخترنا لك أحسن أطباقنا؛ عسى أن يعجبك طعامنا».

وأحسن الغريب بحرج شديد، فوقف وهو يقول لصاحب المطعم متأهباً للانصراف:

«اسمع يا سيدي... أشكرك على لطفك، لكنني لا أملك درهماً واحداً، ولا أستطيع دفع ثمن هذا الطعام، فاسمح لي بالانصراف رجاء».

دفعه صاحب المطعم للجلوس، ثم قال:

«يبدو أنك غريب عن مدينتنا، وربما لم تذوق شيئاً منذ الصباح، فدعني أقم بواجب الضيافة، ولا أطلب منك شيئاً آخر غير الدعاء».

«الدعاء؟...».

«نعم... الدعاء لنا بخير الدنيا والآخرة، فإني أرى في وجهك سمات الرجل الصالح، وإنك لتذكرنا بمظهرك وإشراقه وجهك بالرعيّل الأول من أصحاب الرسول ﷺ».

فاغرورقت عينا غريب بالدموع، واختنق صوته وهو يردد: ﷺ.

وأجلسه مضيفه في مكانه، وجلس قبالة يحدّثه؛ ليزيح عنه مشاعر الألم والغربة التي صاحبتة منذ حل بهذه البلدة، ودعاه للأكل، فاستجاب غريب وذكر اسم الله وهو يمد يده إلى الطعام، وما كف عن حمد الله وشكره على فضل لقائه بهذا الرجل الطيب الذي داوى بكرمه الجرح الذي أحدثه الرجل الأول في قلبه، وجعله يغير نظرتّه إلى أهل هذه المدينة.

في أثناء احتساء القهوة سأله الرجل قائلاً:

«أنت لست من هنا، أليس كذلك؟».

«بلى».

«ولم زرت مدينتنا، وأنت لا تعرف أحدًا فيها؟».

«ربما أراد الله أن يريني حال المسلمين بعد سنوات، لهذا جاء بي إلى مدينتكم... يا إلهي، كم اشتقت إلى زماني وأهلي...».

«وما زمانك؟... وأين هم أهلك؟...».

فسرح غريب بخياله بعيداً، وقال:

«أهلي... لست أدري أين هم، ولا كيف تركتهم، لكنهم بسطاء يعملون ما استطاعوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ أما زماني فهو زمان الرحمة والحب والسلام، هو زمان يعمل أهله للأخرة ويعيشون دنياهم في سعادة ورضى بأرواح معلقة بخالقها وقلوب متألقة وأجساد عفيفة تعاف الحرام، وتتقي الله في كل أحوالها... هذا هو زماني...».

«كيف يسمونك؟».

«اسمي في دنياكم هذه - غريب- وأنا غريب بينكم ما لم أعد إلى زماني، فأنعم بطيب العيش مع أهلي».

فسأله صاحب المطعم، وهو لا يكاد يفهم معنى واضحاً لكلامه:

«هل لك حاجة الآن؟».

«ليست لي حاجة سوى أن أذهب إلى المسجد أدعو الله أن يلطف بي ويعيدني لأهلي، فأنا لا أستطيع العيش معكم».

وقال الرجل مداعباً:

«أنتصرف دون أن أعرف شيئاً عنك؟».

فرد الغريب مبتسماً:

«لا تستطيع أن تعرف شيئاً عني؛ لأنني غير موجود في دنياكم هذه، دعني أذهب يا بني، فقد ضقت بعالمكم، وزهدت في دنياكم، ولم أمكث بينكم إلا ساعات قلائل...».

وهم بالنهوض، فاستوقفه الرجل قائلاً:

«ألا تتصحني قبل أن تغادر؟...».

فربت غريب على كتفه قائلاً:

«لن أنصحك بأكثر مما نصحنأ به رسول الله ﷺ عليك بكتاب الله وسنة رسوله ففيهما الدواء لكل داء والخلاص من كل كرب وعناء وفيهما سعادة الدنيا ونجاة الآخرة».

شكر الغريب الرجل على كرمه ودعا له بكل ما هو خير، ثم مضى عائداً أدراجه إلى المسجد، ولم يكذ يصله حتى دوى صوت الأذان يملأ أرجاء المدينة، ينادي الناس للصلاة، فشعر بالحياة تدب في نفسه وزاده دخول الناس إلى المسجد وإسراعهم لتلبية نداء الله فرحاً وسروراً، فدخل مع الداخلين وتوضأ للصلاة وقلبه معلق بربه، ولاحظ أنه برغم اتساع المسجد ورحابة قاعة الصلاة إلا أنه لم يقف خلف الإمام إلا عدد قليل من المصلين، قياساً إلى العدد الكبير من البشر الذين تزدهم بهم الشوارع، ودفعه الفضول لإلقاء نظرة إلى الخارج قبل قيام الصلاة، فإذا الشارع لا يزال مكتظاً بالرجال والنساء... لا يأبهون بالصلاة وكأنهم غير مطالبين بها وليسوا معنيين بأدائها، وأسف «غريب» أن جرفت الدنيا أغلب الخلق وشغلتهم عن عبادة الله التي هي التجارة الوحيدة المريحة للإنسان، وتتمم يقول:

«الآن عرفت سر عجلتهم وعبوس أوجههم وقسوة قلوبهم... لقد نسوا الله فأنساهم أنفسهم».

واشتدت دهشته حين سارع الإمام في الركوع والسجود، حتى إنه ختم الصلاة في وقت قصير، وتراحم الناس على باب الخروج،

ليصبح المسجد فارغاً في لحظات قليلة!!... وجلس غريب القرفصاء وسط المسجد والدهشة بادية على وجهه:

«السرعة حتى في الصلاة!!... يبدو أنه عصر السرعة حقاً... لقد نزعت البركة من أوقاتهم، يا له من جيل تعيس لم يعرف الله فخرمه من متع كثيرة!».

ولم يرد غريب الخروج، وبقي يصلي ويقرأ القرآن ويدعو الله أن يعيده إلى حيث الحياة الفطرية البسيطة مع قومه، ويستمتع بلذة القرب من الله في تلك الأجواء النقية. وقطع عليه عامل المسجد مناجاته مع ربه، وطلب منه الخروج لفلق المسجد، فقال له غريب:

«بالله عليك، دعني للحظات قصيرة، أصلي ركعتين فقط، ثم أخرج».

فقال العامل:

«حسناً، لكن أسرع، سأذهب لإغلاق النوافذ ثم أعود، لا تجعلني أنتظر كثيراً فأنا على عجلة من أمري ولا وقت لدي...».

وذهب تاركاً (غريب) واقفاً في الصلاة، سابحاً في آفاق علوية رحبة وروحه أقرب ما تكون من خالقها، وبللت دموعه وجهه المشرق الوضيء وهو يتلو آيات القرآن الكريم، فتهتز له نفسه ويضطرب لها قلبه فتزيده خشوعاً لله وطمعاً في رحمته، وعندما عاد إليه العامل يستعجله للخروج كان قد غاب عن الأنظار، ورحل عن هذه الدنيا مثلما أتاها صباح ذلك اليوم.

الشهيد

في يوم عاصف شديد البرودة جلست قرب المدفأة أنظر في عيني
جدتي البريئتين، وأعجب من التجاعيد التي تملأ وجهها، وأسأل نفسي:

«هل حقاً سأصبح ذات يوم مثلها؟!...».

وفجأة التصقت بجدتي، قائلة:

«أرجوك يا جدتي، أن تحكي لي قصة!!...».

فقالت وقد فاجأها طلبتي:

«قصة!!... إنك لم تعودتي صغيرة، فتستهويك قصصي الساذجة،

كما أن كتب القصص تباع بالعشرات، وهي تغني عن قصص الجدات
والأمهات...».

فقلت لها في إلحاح:

«لا أريد قصصاً عن الخرافات والأساطير التي كنا نسمعها منك
ونحن صغار فتخيفنا بأسرارها وعجائبها، لكنني أريد أن تحكي لي
قصصاً واقعية عشت أحداثها وتأثرت بها وأكد أن لديك منها
الكثير».

«قصص واقعية؟!...».

«نعم يا جدتي... لقد قاربت الثمانين وأكد أنك شهدت أحداثاً كثيرة انتشر صيتها ذلك الوقت، ثم نسيها الناس مع مرور الزمان».

أخذت تفتش في ثنايا ذاكرتها؛ عليها تحيي ما مات فيها من ذكريات، ثم انفرجت أساريرها عن ابتسامة هادئة وهي تقول:

«ألا تهملك قصص الثورة؟!...».

«الثورة؟!...».

«نعم، الثورة الجزائرية العظيمة، ألا تريدان أن أحكي لك شيئاً عنها؟».

«بلى، أحب ذلك».

«لن أذهب بعيداً، سأحكي لك قصة استشهاد جدك... زوجي...».

«وهل كنت حاضرة يوم استشهد؟!».

فاعتدلت في جلستها، ونظرت إلى اللهب المنبعث من المدفأة نظرات ساهمة، ولم تلبث أن سافرت بذاكرتها إلى الورا، وقالت بصوت هادئ أغوص معها في ماضيها البعيد البعيد:

«كنت في الخامسة عشرة من عمري حين تزوجني جدك، أما هو فكان في التاسعة عشرة، شاب وسيم أسمر البشرة، أحببته حالما رأيته ليلة الزفاف، أسرني بأخلاقه الكريمة وطيبة قلبه، فكان هو الرجل الأول والأخير في حياتي.. «العربي»... لو تعلمين كم أحب هذا

الاسم... لذلك عندما استشهد وتركني حاملاً سميت المولود «العربي» حتى لا يفارق اسم زوجي الحبيب شفتي... إنه والدك حبيبتي، أطال الله عمره... عشت برفقة زوجي عشرين عاماً حياة هانئة سعيدة أنجبت فيها أربعة عشر طفلاً، وكنا نعيش في مزرعة كبيرة نقوم بفلاحة الأرض وتربية الأغنام والدواجن، ولم نكن نشترى شيئاً من أسواق القرية، بل نأكل ونلبس ما تصنعه أيدينا، كل شيء حولنا بسيط وساذج يشعرنا بسعادة لا نظير لها... الحياة الفطرية البسيطة والقلوب الطاهرة النقية كانا وراء سعادتنا وسرورنا.

تردد زوجي في صغره على مدرسة القرية وكتابها، فحفظ أغلب أجزاء القرآن الكريم، وتعلم القراءة والكتابة باللغتين العربية والفرنسية، فأصبح يطالع الصحف، ويقرأ الكتب بشغف شديد، أما أنا فكنت على عكسه لا أعرف القراءة أو الكتابة، لكنني حفظت في صغري بعض سور القرآن أصلي بها، والفضل يرجع لوالدي - رحمه الله - فقد كان حريصاً على تحفيظنا ما تيسر من سور القرآن الكريم، ويضربنا إذا تكاسلنا عن أداء الصلاة، كان يقول لنا دائماً: «يجب أن تحافظوا على الصلاة وتحفظوا مزيداً من كتاب الله، فهما دليل هويتنا العربية والإسلامية وإلا ذاب كياننا في كيان الفرنسيين وانمحي وجودنا من هذه الأرض إلى الأبد».

لم أكن أفهم شيئاً من كلام والدي، لكن زوجي أفهمني كل شيء، أخبرني أن بلداً آخر من وراء البحر أهله كفار طمعوا في خيرات أرضنا، فاعتدوا علينا وجعلوا شعبنا عبيداً بعدما كانوا أسياداً، وأنه يريد أن يجعل الجزائر مقاطعة فرنسية تابعة لهم تتكلم بلسانهم وتدين بدينهم،

ومن أجل تحقيق هدفهم يسلكون كل السبل من تقتيل وتعذيب ونفي وتشريد، وعندما سألت زوجي: لماذا لم أرهم يأتون إلى قريتنا؟ قال:

«إنهم هنا منذ أكثر من مئة عام يحاولون مسح هذه الأرض وإبادة أهلها ومحو هويتهم، ولا تقوم ثورة إلا سارعوا بإخمادها قبل أن يستفحل خطرهما، وهم يتركزون أكثر في المدن الكبرى والدوائر الصغيرة وبعض القرى، لكن قريتنا هذه بعيدة جداً عن العمران وبيوتها قليلة مبعثرة ومتباعدة لا يشكل أهلها البسطاء أي خطر عليهم، كما أنها منطقة جبلية يصعب الوصول إليها لذلك، فهذا المكان يكاد يكون مجهولاً عندهم».

وصمت جدُّك «العربي» وهو ينظر إلى السلسلة الجبلية الشامخة التي تحيط بقريتنا، ثم قال:

«طاب لهم المقام على أرضنا ويعتقدون أنه أبدي... هم لا يعلمون أن لهب ثورة عظيمة سيندلع من هذا المكان، وأننا سنجعل من جبال الأوراس الأشم هذه ديارنا، وستردد بقوة صدى صرخة الثورة».

أذكر ذلك اليوم جيداً، أقبل زوجي بعد غياب أسبوعين يرتدي لباساً لم أره عليه من قبل ويحمل على ظهره شيئاً غريباً أفزعني مرآه برغم جهلي به، أجلسني قربه، وقال:

«اليوم هو الواحد من شهر نوفمبر نحن في عام ١٩٥٤، تذكري هذا التاريخ جيداً واذكريه لأطفالنا... لقد أعلنت الثورة في كامل أنحاء الوطن، وهذه المرة لن نستسلم أبداً، وقد قررنا جميعاً: النصر أو الشهادة».

وجمع أطفاله حوله وكان أكبرهم يومها في التاسعة عشرة من عمره وأصغرهم لم يتجاوز العامين، وأخذ يحدثهم عن الثورة حديثاً مستفيضاً، ولما انتهى توجه إلى ابنه البكر «عمار» وقال له وهو يربت على كتفيه:

«أنت الآن يا عمار، رجل البيت، أوصيك بالاعتناء بأمك وإخوتك، فأنت المسؤول عن كل شيء في غيابي، أما أنا فسألتحق برفاقي في الجبل، وسأتي لزيارتكم كلما أتحت الفرصة».

وجمع أغراضه وبعض ما يحتاجه من الطعام وصعد الجبل لبقى في البيت وحدنا يمزقنا الخوف من الغد المجهول.

نهضنا ذات صباح باكراً على أصوات مدوية تقترب من بيتنا، فخرجنا مفزوعين، فإذا آلات حديدية ضخمة تحيط بمنازل قريتنا، نزل منها أشخاص غرباء مدججون بالأسلحة لم يلبثوا أن هجموا علينا كالكلاب المسعورة، وجمعوا النساء والأطفال، واقتادوا الرجال إلى جهة أخرى، دخلوا المنازل يعيشون فيها فساداً، ثم أشعلوا النيران في كل شيء، ولم ترتفع الشمس في الأفق حتى أضحت قريتنا ركاماً من رماد ليس فيها سوى أطفال ييكون ونساء ينتحبن بينما اقتيد الرجال إلى السجون وربما إلى الموت.

في تلك الليلة لم ينم أحد، بل تجمعنا في حلقة كبيرة نبكي ديارنا ورجالنا، وفجأة وقف أمامنا ثلة من الرجال لم نتيين ملامحهم إلا حين ظهر القمر من وراء غيوم كثيفة سوداء، تمنعت وجوههم، فإذا زوجي واقف يتقدمهم، فأسرعت إليه أبكي وأحكي له ما حدث، فهدأ من روعي ثم توجه إلينا بالحديث، قائلاً:

«لا تخشوا شيئاً أيها الإخوة، ما عساهم يفعلون أكثر مما فعلوا؟... لقد أخذوا منا كل شيء وحرموننا من أدنى حقوقنا، وها هم الآن يحاولون نشر الموت والرعب في أوساطكم؛ لنستسلم لهم وينقطع آخر أمل لنا في الحياة الكريمة. إننا في الجبال نعد العدة وندبر الخطط للهجوم عليهم حيناً بعد آخر، فبالأمس فقط دمرنا أحد حصونهم المنيعة وقتلنا رجالهم ثم أخذنا أسلحتهم؛ لنضربهم بها، وها هم اليوم ينتقمون منكم... لكننا ندعوكم للصبر والدعاء فليس بين دعوة المظلوم وبين الله حجاب، وسنتصر اليوم أو غداً إن شاء الله».

أدركنا ليلتها أننا لا بد أن نجاهد إلى جانبهم وإن لم نحمل السلاح معهم.

أصبح العسكر يترددون على قريتنا يحرقون ويقتلون، وفي أكثر من مرة أخذوا «عماراً» معهم يعذبونه ويسألونه عن أبيه، ثم يطلقون سراحه. وذات يوم هبط زوجي إلينا وطلب مني إعداد البيت لعقد اجتماعات سرية فيه؛ لأن موقعه أسهل من الجبال للمجاهدين الذين يأتون من كل حذب وصوب، وبعدما أكمل حديثه همّ بالمغادرة حين استوقفه «عمار» قائلاً في إلحاح:

«سأذهب معك يا أبي، هذه المرة ولن تمنعني من ذلك، لقد كبرت ومن واجبي حمل السلاح معكم والجهاد إلى جانبكم للدفاع عن وطني».

فقال له العربي بحنان:

«لكنك تجاهد معنا فعلاً... لا تنس أنك من يحمل لنا المؤونة واللباس، وأنتك الوسيط المباشر بيني وبين إخواني المجاهدين في القرى المجاورة».

فقال عمار بحماس الشباب وثورتهم:

«لم يعد ذلك يشعُرني بأنّي أجاهد فعلاً... أريد حمل السلاح، وقتل العدو... ثمّ إنهم أصبحوا يشكّون فيّ، وكثيراً ما اعتقلوني؛ ليمطروني أسئلة وعذاباً، وأخشى إن أخذوني هذه المرة ألا يطلقوا سراحى أبداً...».

ونظر زوجي تجاهي كأنه يطلب رأيي، فأومأت إليه أن يأخذه معه، فربت على كتفه في رفق وسلمه أحد رشاشاته، وقال له مبتسماً:

«حسنًا، يبدو أنك أصبحت رجلاً دون أن أدرك ذلك، هيا لنذهب قبل أن يباغتنا العدو بإحدى زياراته».

وتعلق به ابن أخري - وكان يومها في نحو الرابعة عشرة - وقال غاضباً:

«وأنا يا أبي، هل ستبقيني هنا مع النساء والأطفال؟...».

فقال، وقد علا وجهه ابتسامة لا أنساها أبداً:

«ماذا دهاكم يا أولاد؟! أعتقدون أننا ذاهبون لفسحة، إنها الحرب حيث لا شيء غير الموت والدمار».

وأخذ يمسخ على رأس ابنه، ويقول له:

«أنت الآن يا بني، أصبحت رجل البيت فاعتنِ بأمك وإخوتك، وعندما تكبر أصبحك معي إلى الجبل... هل اتفقنا؟...».

وبالطبع لم يعجبه الأمر، إذ كان يوقن أنه أصبح رجلاً، لكن قول

أبيه «رجل البيت» أشعره بالفخر وجعله منذ ذلك اليوم يتصرف كالرجال تماماً!!..

غابت أخبار زوجي وولدي عني، ولم تعد تصلني إلا أخبار الهجمات التي يقومون بها والعمليات الفدائية التي يدبرونها، وازدادت وحشية الاستعمار الفرنسي الذي علم بالأمر، فحشد جيوشه ذات مساء نحو قرينتا، ولم يغادرها إلا وكل البيوت حطام، والنيران مشتعلة في كل مكان بفعل القذائف التي كانوا يلقونها عشوائياً؛ ليجبرونا على الرحيل بعيداً عن أراضينا، ولم نجد بداً من الجري في كل الاتجاهات؛ هروباً من تلك القنابل التي تسقط علينا من السماء، ليلتها صرخت في أطفالي أن يشد بعضهم بأيدي بعض، وجرينا نحو المجهول هارينين من رائحة الموت والدخان، لكن القنابل لاحقتنا وتفجرت واحدة بيننا شتت جمعنا، وسقطت والدم ينزف مني، ثم تماسكت حين تذكرت أطفالي ونهضت أبحث عنهم وقد أخذ الرعب مجامع قلبي... لن أنسى ما حييت تلك اللحظة التي وجدت فيها اثنين من أطفالي غارقين في دمائهما وكل منهما ممسك بيد أخيه... وباقي أولادي بين جريح وفاقد للوعي... صرخت حتى رددت السماء صراخي، وبكيت حتى أعياني البكاء وجلست في مكاني جامدة لا يرتد لي طرف حتى طلع الصباح.

دفنت طفلي بيدي، وجمعت حولي من تبقى منهم، واستندنا إلى أحد الجبال يخيم علينا حزن عظيم وذهول كاد يفقدنا الصواب، وعدنا إلى قرينتا بعد أيام قليلة، فأنا لا أعرف مكاناً آخر أذهب إليه، كما فكرت في زوجي وابني أين سيجداني إذا رحلنا إلى مكان آخر. ووجدت أرضنا تتألم ألماً، فقد لحقها الدمار وتشتت أهلها... ووصلت بيتنا، فإذا

به قد سُويّ بالأرض... ولم أدرِ ماذا عساني أفعل، فجلست أنظر إلى أطفالتي وقد أنهكهم الجوع والتعب والخوف، وإلى البيت المهدم كيف أعيد بناءه بمفردي، ونهض ابني «رجل البيت» وآثار الدموع لا تزال عالقة بأهدابه ومضى ينظف المكان، وهو يقول بصوت أجش:

«لا تخافي يا أمه، سنعيد بناء بيتنا وسنقيم فيه ولن نرحل عنه أبداً...».

وانضم إليه إخوته يساعده، فبكيت وأنا أزداد إدراكاً لثقل الضريبة التي ندفعها من أجل حرية بلادنا، ونهضت بدوري أساعدهم، وقد سكن قلوبنا إحساس جميل بحب عظيم يجمع بيننا في هذه المحنة العسيرة... لا يمر علينا يوم إلا وفاجأنا الفرنسيون بدباباتهم وقنابلهم وكلابهم المتوحشة حتى اعتدنا عليهم وأصبحنا ننتظر قدومهم ونحن متشبثون بديارنا وأراضينا، وهلك منا الكثير، ولم يبقَ في قريتنا إلا أفراد قلة تتجرع الموت البطيء ولا تموت.

وفاجأني زوجي بالزيارة ذات يوم، كان شاحب الوجه، هزيل الجسم، واهن القوى، لم يبقَ معنا إلا دقائق قليلة، فهم يبحثون عنه في كل مكان. لم أتوقع مجيئه بمفرده دون ولدي، وعندما سألت عنه التقط أنفاسه.. وقال:

«لا تخافي إنه بخير».

«وأيّن هو؟ لماذا لم يأتِ معك؟...».

«إنه حيث يريد أن يكون، وحيث يجب أن نغبطه على وجوده هناك!..».

«ماذا تقصد؟!!».

«لقد مات ابنك شهيداً وهو يصرخ» «الله أكبر ولتحيا الجزائر».

لا أدري أي إحساس انتابني لحظتها، وأنا أسمع كلمات زوجي، كان من الممكن أن أبكي وأنتحب كما تفعل النساء في موقف كهذا، لكن ما سمعته أشعرنني بالاعتزاز أن قضى ولدي شهيداً فداءً للوطن، وتخليته في الجنة ينعم بجزاء ربه على أن مات ميتة الأبطال، وملأني الله صبراً، فلم أذرف غير دموع اللوعة لفراق عمار.

ومضت سبع سنوات عجاف ذقتنا فيها مرّ الحياة، وبدأ الجنود الفرنسيون يتقهقرون أمام حشود المجاهدين الجزائريين وهم يعجبون لإصرارهم على النصر ولا مبالاة بهم، بالموت، بلغ لهب الثورة مداه فأحرق معسكرات العدو وهدم بيوتهم، فأصبحوا لا يأمنون على حياتهم في أي مكان يحتمون به، وأيقنوا استحالة بقائهم على أرض لم تكن أبداً لهم ولو بقوا فيها أكثر من مئة عام!!

وبدأت تباشير الصبح تظهر، وأصبح العدو يقوم بعمليات تمشيط واسعة؛ بحثاً عن الثوار الأحرار؛ لينتقم منهم قبل رحيله. ذات ليلة اجتمع بيتنا عدد من المجاهدين يخططون للهجوم على آخر معاقل العدو في منطقتنا، أعدنا لهم العشاء، فتناولوه وفرحة النص تتراقص في أعينهم، وفجأة لمعت أضواء قوية وسمعنا خلف الجدران أحدهم يقول بلهجة جزائرية:

«هيا اخرجوا أيها الأوغاد، فأنتم محاصرون من كل جانب ولن

ينجو منكم أحد».

وأطل أحدهم من الباب، فإذا بعدد كبير من العسكر يحيط بالمكان متحفزين للقتل وإراقة مزيد من الدماء، وهمس العربي لأصحابه:

«هناك من بلغ العدو باجتماعنا هذه الليلة... الخائن الحقيير...».

فقال أحد أطفاله، وقد عرف صوت المتحدث:

«إنه الراعي الذي يعمل عندنا... تسلل بالانصراف حين وصلتكم...».

«لنقتلنه شر قتلة؛ ليكون عبرة لأمثاله من الجبناء».

وتقدم أحدهم قائلاً:

«ماذا سنفعل؟».

ودوي الصوت من الخارج يقول:

«إن الضابط الفرنسي يطلب قائدكم حياً، إن لم يخرج ينسف البيت بمن فيه».

تبادل المجاهدون النظرات وهمّ زوجي بالخروج، فاستوقفه أصحابه قائلين:

«لا.. لن تخرج إليهم، إننا بحاجة إليك... وليخرج إليهم أي واحد منا فهم لا يعرفون القائد من يكون».

ولأولا مرة عرفت أن زوجي هو قائد منطقتنا، وأن كل شيء كان يسير حسب أمره، فشعرت نحوه بإحساس غريب ربما هو أسمى من كل إحساس في الدنيا.

رفض زوجي أن يضحي أحد إخوانه بحياته من أجله، وحاول الخروج إلى العدو لكنهم أمسكوه بالقوة، وهمّ أحدهم بالخروج؛ ليسلم نفسه على أنه القائد، فاعترض زوجي قائلاً:

«لن يخرج إليهم أحد... إنهم سيقتلوننا في كل الأحوال، وإن أمسكوا بنا أحياء مثلوا بنا، وسامونا سوء العذاب قبل قتلنا... لندافع عن أنفسنا لآخر نفس في حياتنا ولنحرمهم شرف تعذيبنا ونحن على أعتاب الاستقلال».

وتكوننا نحن النساء والأطفال في ركن من البيت وأخفينا رؤوسنا بين أيدينا ونحن نسمع طلقات الرصاص المتبادلة، وانقسم المجاهدون إلى أربع مجموعات يضربون العدو من كل الجهات ويقذفونهم بالقنابل اليدوية، واستطاع بعضهم التسلل خارج أسوار المنزل والتوجه إلى الجبال المجاورة لإبعاد المعركة عن البيت.

لحق العدو بالفارين تتقدمهم كلابهم الضخمة التي توقفت عند خندق، وهي تنبح بشدة، وكأنها تقول لأسيادها:

«تقدموا، إنهم مختبئون هنا!!...».

قال زوجي لرفيقه:

«لقد نفذ سلاحنا ولم يبق معنا غير هذه القنبلة وبعض الرصاصات، وإن بقينا هكذا فسيأخذوننا سجناء... فلنقاتل يا إخوان، ولنقتل واحداً من أعداء الله والوطن؛ حتى لا نساق إلى الموت أذلة صاغرين».

وخرج ثلاثتهم من الخندق بعدما رموا تلك القنبلة على إحدى سياراتهم ففجرتها، وأطلقوا رصاصاتهم على العدو، وهم يرددون بصوت واحد رددت صداه تلك الجبال الشامخة:

«الله أكبر، ولتحيا الجزائر».

وسقط زوجي وإخوانه شهداء من أجل أن تحيا الجزائر.



رحلة البحث عن النصف الآخر

جلست «نوال» أمام مرآتها في الغرفة التي تتقاسمها مع أختها الكبرى «منال»، وبأطراف أصابعها الرقيقة أخذت تتحسس ملامح وجهها، وتمررها على حاجبيها الرفيعين وعينيها الزرقاوين بأهدابهما السوداء الطويلة، وأنفها الصغير المدبب وشفتيها الرقيقتين اللتين تخفيان أسناناً كقطع البلور، ثم على بشرتها الناصعة البياض وكأنها تبحث عن مواطن التغيير في كل خلية من خلايا وجهها الجميل.. وهالها تلك التجاعيد الخفيفة التي لم يستطع مكياجها الصارخ أن يخفيها، واضطرب قلبها في صدرها حين لمعت شعيرات بيض تتحدى سواد شعرها، ولم تلبث أن همست مذعورة:

«اللعة.. برغم أنني أبذل جهدي ووقتي لإخفاء هذه التجاعيد بكل أنواع المكياج ومختلف الأقنعة، غير أنها تأبى إلا أن تظهر... حتى الشعرات البيضاء يزداد عددها كل يوم، كأنها تصرخ: أمعنوا النظر، لقد قاربت (نوال) الأربعين، ولم تتزوج بعد!!...».

كارثة... إنها كارثة بالنسبة لنوال ألا تتزوج - هي بالذات - حتى هذه السن المتأخرة... لكم تباهات بجمالها أمام زميلات وقربياتها، وكم اعتبرته جواز سفرها إلى عالم الرجال، وفي الأخير سافرت الزميلات والقريبات وبقيت وحدها تنتظر في محطة العوانس!!...

من كان يظن أن «نوال» الأستاذة الفاتنة صاحبة الجمال الساحر والقوام الرشيق التي لم تخرج من بيتها يوماً إلا وهي في كامل زينتها وأناقتهـا كأنها عارضة أزياء... من كان يتوقع أن تتجاوز الخامسة والثلاثين ولم تدخل قفص الزوجية بعد!... عجباً لأمر الدنيا، تزوجت الدميمات والجاهلات، ولم تستطع هي بكل ما تملكه بين يديها أن تحذو حذوهن ويكون لها مثل غيرها زوج وبيت وأطفال!!...

لم تستطع حبس دموعها، وهي تشعر بالاختناق لهذه الأفكار التي تتوالى على مخيلتها حين دخلت أختها «منال» عائدة من المستشفى حيث تعمل طبيبة منذ عشر سنوات، وانتبهت إلى دموع أختها، فجلست إلى جانبها تسألها في رفق:

«لماذا تبكي نوال أخت منال الوحيدة؟!..»

فصمت نوال ولم تجبها، فاقتربت منها منال هامسة:

«لا تقولي: إن هناك من عاكسك في المدرسة أو...».

فقاطعتها نوال:

«اطمئني لم يعد هناك من يعاكسني، ولا أحد يلتفت إليّ ألبتة... لقد أصبحت لا أستهوئ إلا الشيوخ والمتزوجين، أما غيرهم فهم منصرفون عني إلى الصبايا ذوات العشرين ربيعاً... لقد ولى زماي، هذه هي الحقيقة...».

فقالـت نوال مبتسمة:

«الآن فهمت المشكلة... الزواج طبعاً...».

فدفعتها نوال عنها في قوة غاضبة:

«يا البرودة أعصابك، وعدم اهتمامك! ألا تعدّين الزواج مشكلة؟... إنه مشكلة حقيقية لكل امرأة في هذا الوجود وكأنك غير معنية بالأمر!...».

فقال منال في هدوء:

«بالطبع أنا معنية بالأمر ككل نساء الأرض، ولكن...».

فقاطعتها نوال منفعة:

«لكن ماذا؟... انظري إلى نفسك لقد جاوزت الأربعين، ولم تتزوجي بعد، بل لا أحد تقدم لخطبتك منذ سنوات وكأنك خرجت من قائمة النساء، وبرغم ذلك فأنت لا تفكرين في شيء غير عملك، أتراك تزوجت الطب والمرضى؟...».

تمت نوال مطرقة:

«لقد اخترت طريقي، وأنا راضية عن حياتي.

«راضية!!... إنك تكتمين في نفسك وتتعذبين في صمت، أنتعدين أنني لم أسمعك وأنت تبكين ليلاً وتحاولين كتم صوت أنينك؛ حتى لا يرى أحد دموعك؟...».

أثرت منال الصمت، فأضافت نوال قائلة:

«كيف تريدين أن يخطبك أحد، وأنت لا تهتمين بنفسك أبداً؟... انظري في المرأة، إنك تبدين بالحجاب وشعرك مغطى بهذا الخمار

كأنك عجوز في الستين!!... ووجهك، إنك لم تضعي عليه مسحوقاً واحداً طوال حياتك، بل حتى سلوكك يثير الغرابة، كم مرة أزورك بالمستشفى، فإذا بك تتعاملين مع زملائك من الأطباء والممرضين تعامل الرجل مع الرجل لا تعامل الأنثى، فلا ابتسامة ولا كلمة مزاح ولا نظرة خاطفة... لقد سمعتهن يتممون حولك - «إنها معقدة جداً ومتكبرة!!»... - هل يرضيك أن تكون لديهم هذه النظرة السيئة عنك؟».

رفعت منال رأسها، بعد طول إطراق، وقالت:

«وأنت ما رأيك، هل أنا كما يقولون؟...».

«بالطبع لا، أنا أختك وأعرفك جيداً وهذا ما يؤلمني حقاً، أن تكوني على قدر كبير من الأخلاق والذكاء وطيبة القلب وصفاء النفس ولا يدرك من حولك كل هذا، وخاصة الرجال منهم... ولكن كيف يعرفون كل هذه الصفات فيك وأنت لا تتعاملين معهم إلا في إطار محدود جداً؟ وكيف يدركون أنوثتك وأنت تتشبthin بهذا اللباس في مثل هذا العصر؟...».

فقالت منال:

«إنني لن أغضب ربي من أجل إرضاء الرجال، ولن أتنازل قيد أنملة عن لباسي وأخلاقي ومبادئ.. ولو دفعت الثمن حياتي نفسها...».

فحذبتها أختها بنظرة ساخرة، فقالت منال غير مكتثرة بما يصدر عنها:

«وأنت يا أختي العزيزة، شاء الله أن تكوني نقيضي في كل شيء، رفضت ارتداء الحجاب برغم أنه أمر إلهي لا نقاش فيه، وقضيت

حياتك كلها تفعلين ما يحلو لك في حرية مطلقة... فماذا كانت النتيجة؟!...».

اضطربت نوال، ثم قالت:

«استمتعت بحياتي، وعشت شبابي لحظة لحظة... لست نادمة على شيء...».

«وماذا بعد الاستمتاع؟ هل بلغت هدفك؟!...».

«سيتقدم منير لخطبتي قريباً، وعدني بذلك وأنا أصدقته».

«أيتها الساذجة البلهاء، أما زلت تصدقين وعود الرجال؟!... كم رجلاً وعدك بالزواج، ثم ذهب إلى غير رجعة؟ أجيبيني بكل صراحة وصدق!...».

تغير وجه نوال لسماعها هذه الكلمات، فجلست إلى مراتها مرة أخرى وأخفت وجهها بين راحتيها وراحت تبكي، وقد شعرت أن أختها وضعت يدها على الجرح الذي يؤلمها وبصوت متهدج مبجوح، قالت تغالب دموعها:

«هذا هو سبب بكائي... برغم جمالي وأناقتي وذكائي، وبرغم أنني استهويت عدداً لا يحصى من الرجال، وتعرفت إلى الكثيرين منهم، إلا أنني اقتفيت آثارك دون أن أشعر لأحمل معك لقب عانس!!... الآن فقط بدأت أشعر أنني كنت لعبة بين أيديهم جميعاً... كلهم مخادعون، كاذبون...».

وأخذت تصرخ بأعلى صوتها، فضمتها أختها إلى صدرها وهي تقول:

«لوصادفت رجلاً أحبك بصدق لتزوجك، ولو التقيت رجلاً حقيقياً في حياتي لتزوجني، لكننا نعيش زمناً لا مكان للحب الصادق فيه، ولا وجود للرجل الذي يقدر أخلاق المرأة في زمن التعفن والانحلال، القلوب لم تعد تتسع إلا للكذب والنفاق والخداع، والأرض لم تعد تحمل على ظهرها إلا أشباه الرجال... إنه قدرنا في هذا الزمن الرديء».

خفّ نحيب نوال، فقبلتها منال على جبينها، وقالت:

«لقد أراد الله حمايتنا من أنفسنا، وممن هم حولنا حين فرض علينا الحجاب، ووالدانا - حفظهما الله - تركانا نسلك طريقنا بحرية لفرط حبهما لنا، فسلكت - بفضل الله - سبيل الفطرة السليمة، بينما رفضت هذا السبيل وأغرقت الدنيا بمباهجها المزيفة، وأردت الاستمتاع بشبابك حتى ولو كان في ذلك غضب الله... فماذا كانت النتيجة؟!».

لم تجب نوال، فواصلت منال تقول:

«في ظاهر الأمر نحن نبدو سواء، فتاتان تعانيان العنوسة بكل أبعادها، لكن... ما أعظم اختلافنا!.. إنني راضية بحياتي، قانعة بما كتبه الله لي، أعيش حياة نفسية مطمئنة عدا بعض لحظات الضعف التي أمر بها بين الحين والآخر، وهذا من طبيعة الإنسان، وخاصة المرأة... إننا لسنا آلات تتحرك بلا مشاعر وأحاسيس... أما أنت فحياتك مضطربة قلقة، تعيشين جحيماً نفسياً؛ لأن الهدف الوحيد الذي رسمته لحياتك قد لا يتحقق أبداً...».

فقاطعتها نوال صارخة:

«لا تقولي هذا، سأقتل نفسي إن لم يتحقق حلمي بالزواج، وبمن أريد!...».

فضحكت منال، وقالت:

«المؤمن لا يقتل نفسه؛ لأن هدفه في الحياة لم يتحقق، بل يصبر ويسلم أمره لله يفعل ما يشاء».

ودخلت والدتهما تبسم ابتسامة من يخفي أمراً، جلست أمامهما، ثم قالت ضاحكة:

«لكما عندي خبر قد لا تصدقانه أبداً...».

شخصت أعين الفتاتين، واستعجلتاها؛ لتقول ما لديها:

«طبيب يعمل مع منال، تحدث اليوم إلى والدكما يخطب...».

وصمتت، فقفزت نوال وأكملت الجملة بفرحة كبرى:

«منال!!... أخيراً جاء الفرج...».

فقالَت الأم، وقد شحبت تلك الابتسامة:

«بل يخطب نوال!!...».

«نوال!!...».

«أنا!!...».

فقالت الأم:

«أنا أيضاً فاجأني الخبر، واعتقدت أنه مادام زميلاً لمنال، فسيخطبها هي، لكنه طلب نوال للزواج وأخبر والدكما أنه أعجب بها كثيراً حين رآها بالمستشفى تزور أختها...».

سكتت الأم على مضض، ثم توجهت إلى نوال بالحديث، قائلة:

«لكن لديه شرط واحد...».

«شرط...». سألت نوال.

«إنه يطلب منك أن ترتدي الحجاب... فهو - كما قال - لا يريد لأي رجل أن يرى جمالك...».

تبادلت الفتاتان نظرات الدهشة والاستغراب، ولم تلبث نوال أن قالت:

«إذا كان يريد ذات الحجاب فلماذا لا يخطب منال، فهي تملك من جمال النفس والروح ما يفوق جمال شكلي... وهي امرأة ككل النساء لا يعيبها شيء».

ردت منال، وعلامات الأسف بادية على وجهها:

«أغلب الرجال يلهثون وراء جمال المرأة... الدين والأخلاق لم يعودا مقياساً للزواج، لذلك كثر الطلاق والأزواج التعساء والأطفال المشتتون».

فقالت نوال، غاضبة:

«وأنا لن أقبل بهذا الرجل أبداً، ولو بقيت عانساً طوال حياتي!!».

لم تذق الأختان طعم النوم تلك الليلة، فكل واحدة منهما جرحت في كبريائها كامراًة.

في الصباح، توجهت منال لعملها كالمتعاد، وكأن شيئاً لم يكن، بينما بقيت نوال في غرفتها اليوم كله وما أعقبه من أيام، تستعرض في ذاكرتها ما سبق من حياتها، وتعيد التفكير في كل شيء بجدية لم تعهدها في نفسها.

ذات يوم، فاجأت الجميع، وهي تخرج من غرفتها ترتدي ملابس أختها واضعة الخمار على رأسها، ماسحة كل أثر للمساحيق على وجهها، لم يصدق أحد من عائلتها حين رأوها على هيئتها الجديدة، وقبل أن تُسأل عن هذا التغيير تأبطت ذراع أختها، وقالت باسمه:

«لن أقبل بمن يشتريني لجمالي... سأسير مع أختي منال في الطريق نفسه نحو الهدف نفسه، حتى لو خسرت العالم كله، المهم ألا أخسر نفسي».

تعانقت الأختان، وخرجتا من البيت معاً تداعب سعادة غامرة قلبيهما.



obeikandi.com

منشورات رابطة الأدب الإسلامي العالمية

- ١- من الشعر الإسلامي الحديث، لشعراء الرابطة.
- ٢- نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي.
- ٣- ديوان «رياحين الجنة» عمر بهاء الدين الأميري.
- ٤- دليل مكتبة الأدب الإسلامي في العصر الحديث، د. عبدالباسط بدر.
- ٥- النص الأدبي للأطفال، د. سعد أبو الرضا.
- ٦- ديوان «البوسنة والهرسك»، مختارات من شعراء الرابطة.
- ٧- لن أموت سدى «رواية»، الكاتبة جهاد الرجبي.
- ٨- ديوان «يا إلهي»، محمد التهامي.
- ٩- يوم الكرة الأرضية «مجموعة قصصية» د. عودة الله القيسي.
- ١٠- ديوان «مدائن الفجر» د. صابر عبدالدايم.
- ١١- العائدة «رواية»، سلام أحمد إدريسو.
- ١٢- محكمة الأبرياء «مسرحية شعرية» د. غازي مختار طليمات.
- ١٣- الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني، د. حلمي القاعود.
- ١٤- ديوان «حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري» د. جابر قميحة.
- ١٥- ديوان «في ظلال الرضا»، أحمد محمود مبارك.
- ١٦- في النقد التطبيقي، د. عماد الدين خليل.
- ١٧- الشيخ أبو الحسن الندوي، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

- ١٨- القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر، حليلة الحمد.
- ١٩- د. محمد مصطفى هدارة، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.
- ٢٠- معسكر الأرامل «رواية مترجمة عن الأفغانية» تأليف مرال معروف، ترجمة د. ماجدة مخلوف.
- ٢١- قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم «دراسة أدبية»، محمد رشدي عبيد.
- ٢٢- قصص من الأدب الإسلامي «القصص الفائزة في المسابقة الأدبية الأولى للرابطة».
- ٢٣- أدب المرأة .. دراسات نقدية من بحوث الملتقى الدولي الأول للأدبيات الإسلامية.
- ٢٤- الآمال صارت آمالاً، رواية من الأدب التركي، تأليف د. نور الله كنج، ترجمة د. عوني لطفي أوغلو.
- ٢٥- نحو كوكب الحرية - رواية من الأدب الفارسي، تأليف محمود حكيمي، ترجمة عثمان أيزدينه.
- ٢٦- مملكة النحل - رواية من الأدب التركي - تأليف علي نار، ترجمة كمال أحمد خوجه.
- ٢٧- أقباس - ديوان شعر - طاهر العتباني.
- ٢٨- الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة - د. كمال سعد خليفة.
- ٢٩ - عقد الروح - ديوان شعر - نبيلة الخطيب.
- ٣٠- المفسدون في الأرض - مجموعة قصصية - فاطمة محمد شنون.
- ٣١- فوهة الجرح - مجموعة قصصية - سكينه قدور.
- ٣٢- الأرض الجريحة - مجموعة قصصية - صورية إبراهيم مروشي.



صدر في سلسلة أدب الأطفال

- ١- غرد يا شبل الإسلام - شعر - محمود مفلح.
- ٢- قصص من التاريخ الإسلامي - أبو الحسن الندوي.
- ٣- تغريد البلابل - شعر - يحيى الحاج يحيى.
- ٤- مذكرات فيل مغرور - د. حسين علي محمد.
- ٥- أشجار الشارع أخواتي - شعر - أحمد فضل شبلول.
- ٦- أشهر الرحلات إلى جزيرة العرب - فوزي خضر.
- ٧- باقة ياسمين - قصص للأديب التركي علي نار - ترجمة شمس الدين درمش.
- ٨- أغنية للغيمة البعيدة - شعر - أحمد زرزور.
- ٩- مغامرات عصفور - قصص - عبدالجواد الحمزاوي.
- ١٠- شيماء - قصص - حسن القشتول.
- ١١- مدينة الرحمة - مسرحية - محمود عبدالله محمد.
- ١٢- بيض من ذهب - مسرحية - لطفي عبدالمعطي مطاوع.
- ١٣- سجين الهاء والواو - مسرحية - محمد عبدالحافظ ناصف.

● تطلب من رابطة الأدب الإسلامي العالمية:

المملكة العربية السعودية: الرياض ١١٥٣٤ - ص.ب ٥٥٤٤٦

هاتف: ٤٦٣٨٨-٤٦٣٧٤٨٢ فاكس: ٤٦٤٩٧٠٦

web page adress: www.Adabislami.org

E-mail: info@adabislami.org

المؤلفة في سطور

- صورية إبراهيم مروشي.
- من مواليد سريانة عام ١٩٦٦م.
- مهندس دولة في الهندسة المعمارية، جامعة قسنطينة ١٩٩٢م.
- كاتبة قصة قصيرة ورواية. نشرت في العديد من المجلات العربية مثل المشكاة المغربية، والشقائق السعودية.
- فازت مجموعتها القصصية (الأرض الجريحة) بالجائزة الثالثة في مسابقة الأدبيات بالرابطة.
- فازت بالجائزة الأولى في الرواية بمسابقة الإبداع الأولى التي أجراها موقع (لها أون لاين).
- فازت بالجائزة الثالثة في القصة القصيرة بمسابقة الإبداع الثانية التي أجراها موقع (لها أون لاين).
- عضورابطة الأدب الإسلامي العالمية.

